
معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حرب الخليج

معارك العرب 4

اسم الموسوعة : معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج

اسم الكتاب : الفتوحات الكبرى (1) - فتوحات الشام ومعركة القادسية

المؤلف : العميد الركن الدكتور سامي ريحانا

قياس الكتاب : 20x28 سم

عدد الصفحات : 192

عدد صفحات الموسوعة : 5920

مكان النشر : بيروت - لبنان

دار النشر والتوزيع : دار نوبليس

تلفاكس : 961 1 58 34 75

هاتف : 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21

بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com

الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (4)

الفتوحات الكبرى (1) – فتوحات الشام ومعركة القادسية

NOBILIS
2007

المقدّمة

رأينا في الجزء السابق أن معركة الفراض كانت آخر معارك خالد بن الوليد في العراق قبل أن يتوجّه، بأمر من الخليفة أبي بكر، إلى بلاد الشام حيث شارك مع قادة آخرين في العديد من المعارك الكبرى التي أدّت إلى فتح بلاد الشام أمام المسلمين.

وفي هذا السياق يمكننا التساؤل عن سبب توجيه خالد إلى بلاد الشام، في حين أنه كان يحقق إنجازات كبرى على جبهة العراق، وقبل إكمال فتح العراق؟

ولماذا لم يأمر الخليفة خالداً باستغلال انتصاراته في العراق لتدمير المملكة الساسانية التي كانت قد أصبحت على شفير الانهيار؟

إنما، وقبل الإجابة على هذه التساؤلات ولوضعها في إطارها التاريخي، ينبغي التطرّق إلى حادثة بدت غريبة يومذاك، وهي حجّ خالد إلى مكّة المكرّمة من دون علم الخليفة أو جيشه المنتقل من الفراض إلى الحيرة!

ففي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة السنة ثلاث عشرة للهجرة، الموافق ٣١ كانون الثاني السنة ٦٣٤ ميلادية، أمر خالد جيشه بالإستعداد للعودة إلى الحيرة التي اعتبرها مركزاً لحكم المناطق المفتتحة في سواد العراق. وسار الجيش، وعلى مقدّمته عاصم بن عمرو التميمي وشجرة بن الأعز على الساقة.

وسار خالد مع الساقة، لكنه، وفي غفلة من جنده ومن أعدائه، ترك جيشه وسار متخفياً من العراق إلى أقصى

الحجاز، حيث أدى فريضة الحج في مكة المكرمة. ثمّ عاد إلى جنده وانضم إلى الساقة من جديد، ودخل الحيرة مع جيشه، مجتازاً بذلك مسافة ألف وستمائة كيلومتر مرتين. ولم يعلم الخليفة بذلك إلاّ بعد وصول الجيش إلى الحيرة.

كتب الطبري عن حج خالد هذا ولوم أبي بكر له:[1]

«قال أبو جعفر: وخرج خالدٌ حاجّاً من الفِراض لخمس بقين من ذي القعدة، مكتتماً بحجّه، ومعه عدّةٌ من أصحابه، يعتسف البلاد حتى أتى مكّة بالسمت، فتأتّى له من ذلك ما لم يتأتّ لدليل ولا رئبال. فسار طريقاً من طُرق أهل الجزيرة، ولم يُرَ طريقٌ أعجب منه؛ ولا أشدّ على صعوبته منه، فكانت غيبته عن الجند يسيرة. فما تَوافَى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب السّاقة الّذي وضعه، فقدما معاً؛ وخالد وأصحابه محلّقون. لم يعلَم بحجّه إلاّ مَنْ أفضى إليه بذلك من السّاقة، ولم يعلم أبو بكر رحمه الله بذلك إلاّ بعد، فعتب عليه. وكانت عقوبته إيّاه أن صرَفه إلى الشام. وكان مسيرُ خالد من الفراض أن استعرض البلاد متعسّفاً متسمّتاً، فقطع طريقُ الفِراض ماء العنبريّ، ثمّ مِثْقَباً، ثمّ انتهى إلى ذات عِرق، فشرّق منها، فأسلمه إلى عرفات من الفِراض، وسُمّي ذلك الطريق الصُّدّ؛ ووافاه كتاب من أبي بكر منصرفَه من حَجّة بالحيرة يأمره بالشام؛ يقاربه ويباعده.

قال أبو جعفر: قالوا: فوافى خالداً كتابُ أبي بكر بالحيرة، منصرفَة من حجّه: أن سِرْ حتّى تأتي جموع المسلمين باليَرْموك، فإنهم قد شجُوا وأشجوْا؛ وإيّاك أن تعود لمثل ما فعلت؛ فإنّه لم يُشجِ الجموع من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجى من الناس نَزْعَك؛ فليهنئك أبا سليمان النّيَّة والحُظْوة؛ فأتْمِم يتمم الله لك، ولا يدخلنّك عُجْب فتخسَر وتخذَل، وإيّاك أن تُدلّ بعمل، فإنّ الله له المنّ، وهو وليّ الجزاء».

ورغم نجاح خالد في هذه المغامرة التي أثبتت عبقريته في معرفة جغرافية البلاد من

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٢، ص ٣٣٣.

دون دليل، فإنّه سبّب لنفسه غضب الخليفة أبي بكر، الذي كان دائم الدفاع عنه أمام إلحاح عمر بن الخطاب لتغييره من القيادة، وذلك منذ مقتل مالك بن نويرة في حروب الردة وزواج خالد من امرأته.وكان جواب أبي بكر الدائم لعمر:

«لا أُشيم[١] سيفاً سَلَّهُ الله على الكفّار».

وعلى إثر حادثة الحج هذه، تلقى خالد كتاباً من الخليفة يأمره فيه بترك العراق بنصف الجيش إلى الشام، على أن يقود النصف الثاني في العراق المثنى بن حارثة.

واختلف المؤرّخون حول سبب تحويل خالد إلى بلاد الشام، فمنهم من ردّ ذلك إلى الحاح عمر وغضب الخليفة من عمل خالد المذكور، ومنهم من ردّ ذلك إلى تقدير الخليفة لعبقرية خالد الحربية، فوجهه إلى فتح بلاد الشام بعد أن عجزت الجيوش الإسلامية عن تحقيق انتصارات كبرى على تلك الجبهة.

وما أيّد أقوال الذين يرجّحون تحويل خالد إلى بلاد الشام بسبب غضب أبي بكر أن خطة الخليفة للفتوحات كانت تقضي بالبدء بغزو العراق، لأن بلاد فارس أسهل منالاً وأقل قوّة من الامبراطورية البيزنطية.

أما ما يؤيّد الرأي الآخر فهو أن أبا بكر عيّنه قائداً عاماً للجيوش الاسلامية في بلاد الشام، وأن الخليفة، وبعد إكمال فتح سواد العراق، كان قد اطمأنّ فعلاً إلى جبهة العراق. كما أن نصف الجيش الباقي في العراق كان بقيادة أحد أمهر القادة المسلمين وأشدّهم بأساً، وهو المثنى بن حارثة. كذلك إن خالداً بن سعيد بن العاص الذي أرسله أبو بكر لجسّ نبض الروم في الشام واستطلاع أخبارهم، كان قد غامر في أرض العدو وتوغل فيها دونما حذر، فوقع في الشرك الذي نصبه له باهان قائد الجيش الرومي. وتظاهر هذا الأخير بالانسحاب قبل أن يطبق على جيش المسلمين من الخلف والجانبين في أرض حوران، ويكاد أن يقضي عليه لولا إنقاذه من قبل عكرمة بن أبي جهل.

---

(١) أُشيم أي أغمد.

إضافة إلى ذلك، كان لفتح بلاد الشام أولوية في عهد رسول الله ﷺ الذي كان قد بعث بسرية مؤتة وسرية تبوك. كما أن الخليفة أبا بكر كان قد بعث أيضاً بحملة أسامة بن زيد إلى بلاد الشام رغم حرب الردّة التي كان عليه أن يخوضها.

هذه الأسباب مجتمعة تجعلنا نرجّح الرأي الثاني، أي القائل أن سبب تحويل خالد إلى جبهة الشام كان حاجة هذه الجبهة إلى هذا القائد الكبير الذي أظهر عبقرية في فتوح العراق لم يظهرها أي قائد مسلم حتى ذلك الحين.

كما أننا نرى أنه من غير المنطقي أن يعاقب الخليفة أهم قائد لديه في حين ما زالت جبهات الفتوحات مشتعلة، وفي حين تلقّى المسلمون ضربات موجعة على جبهة الشام.

الفصل الأول

الوضع العسكري في بلاد الشام قبل وصول خالد بن الوليد

فيما كانت الأعمال العسكرية قائمة في العراق، كانت جبهة بلاد الشام قد تحرّكت أيضاً، وكانت الجيوش العربية تهاجم المراكز والمدن التي كانت تسيطر عليها الامبراطورية البيزنطية.

وبالفعل، فإن الأعمال العسكرية ضد بلاد الشام بدأت منذ عهد الرسول ﷺ حين أرسلت سرية مؤتة ثمّ سرية تبوك وكانت آخر قوّة جهزها النبيّ ﷺ قبل وفاته وأراد إرسالها ضدّ تلك البلاد هي أوّل قوة أرسلها الخليفة أبو بكر إليها،(١) وذلك رغم أن حروب الردّة كانت على أشدّها، وهي التي أخّرت حركة الفتوحات طيلة سنة كاملة. إنّما، وبعد انتهاء حروب الردّة، نشطت جبهات الشمال ومنها جبهة الشام.

ورغم أن خطة أبي بكر قضت بالبدء في غزو العراق لأنّ فارس أكثر تضعضعاً من الروم، إلاّ أن رغبته في فتح جبهة الشام كانت شديدة إذ قال: «لَفَتحِ قرية في الشام أفضل عندي من فتح بلد في العراق».(٢)

أولاً – أهمية بلاد الشام الاستراتيجية بالنسبة إلى المسلمين

كان فتح بلاد الشام من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الدولة الإسلامية، وقد تفوق أهمية فتح بلاد فارس وذلك لأسباب أبرزها:

---

(١) حملة أسامة بن زيد.

(٢) سويد، ياسين، مقدّم، معارك خالد بن الوليد، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢١٣.

- كان مركز القيادة العامة البيزنطية في القسطنطينية بعيداً جداً عن مكان العمليات العسكرية في بلاد الشام، فيما أن العراق يعتبر مركزاً متقدّماً ومباشراً للمملكة الساسانية التي قد تضع ثقلها في معركة العراق. أما الامبراطورية البيزنطية، فإن تراجعها عن بلاد الشام لا يُعدّ مأسوياً بالنسبة إليها إذ أن المركز المتقدّم عسكرياً هي آسيا الصغرى، التي يمكنها منها حماية العاصمة وتأمين العمق الاستراتيجي اللازم للدفاع عنها.

- ان القضاء على الوجود البيزنطي في الشام يؤمّن للمسلمين دفعاً معنوياً مهماً بسبب قوّة الامبراطورية البيزنطية في تلك المنطقة. وهذا الدفع المعنوي يفوق ذلك الذي يؤمّنه تحرير العراق من الهيمنة الفارسية.

- تعتبر بلاد الشام ممراً إلزامياً نحو فلسطين ومصر وشمال افريقيا، لذلك فإن تأمين هذا الممر للقوات الاسلامية التي ستكلف فتح تلك المناطق هو هدف استراتيجي بارز.

- كما أن متابعة التقدّم نحو القسطنطينية بهدف احتلالها وإنهاء وجود مملكة الروم يفرض تحرير سوريا ولبنان من الوجود البيزنطي. وذلك سعياً إلى تأمين حماية القوات المتقدّمة عبر آسيا الصغرى من الخلف وعدم ترك مراكز عدوّة يمكنها إعاقة هذا التقدّم.

- كان أبو بكر، مثله مثل بقية القرشيين، يعرف الشام وبلدانها في شكل جيد، وكانت هناك دائماً آمال مع خطط لفتح الشام. ومما كان يشجع على ذلك أحوال بلاد الشام البشرية، حيث أنها كانت عربية المشاعر وعربية العرق الطاغي.

- إن عراقة الامبراطورية البيزنطية وتاريخها الطويل وخروجها من صراعها مع المملكة الساسانية منتصرة، تفرض التخلّص من سيطرتها على بلاد الشام أولاً، وقبل التفرّغ لمناجزة فارس. فالمناورة بالخطوط الداخلية التي تعتمدها عادة الدولة في حال إضطرارها للحرب ضد خصوم كثيرين، تقضي بالتخلّص أولاً من الخصم الأقوى قبل توجيه الجهد ضد الخصوم الباقين، الواحد تلو الأخر. ويهدف ذلك إلى عدم ترك المجال للخصم القوي لفرض معركته حيث يريد في المكان والزمان، فيكون قد أخذ المبادرة في التدخّل.

- إن الحروب التي خاضها العرب المسلمون ضد قوى تملك أساطيل بحرية قوية، فرضت عليهم الجمع بين الحرب البرية والحرب البحرية في معاركهم. لذلك بدأ العرب بإنشاء الأساطيل البحرية في عهد معاوية بن أبي سفيان وإطلاقها من شواطىء البحر المتوسّط الشرقية التابعة لبلاد الشام.

كلّ هذه العوامل جعلت من فتح بلاد الشام ضرورة حتمية. وهذا ما سيقوم به الخليفة الراشدي الأول أبو بكر.

ثانياً – بدء العمليات على جبهة الشام

سبقت الأعمال الحربية التي خطّط لها أبو بكر غزوات متفرّقة منذ عهد النبي ﷺ، أهمها غزوتا مؤتة وتبوك كما ذكرنا، وحملة أسامة بن زيد التي خطط لها الرسول ﷺ ونفذت في عهد الخليفة أبي بكر.

ومع انتهاء حروب الردة نشطت الحركة العسكرية على جبهة الشام. ففي السنة ١٣هـ/٦٣٤م، استنفر أبو بكر العرب في بقاع شبه الجزيرة لحرب الروم.

كتب البلاذري عن هذا الاستنفار:[١]

«قالوا: لمّا فرغ أبو بكر «رضه» من أمر أهل الردّة رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فكتب إلى أهل مكّة، والطائف، واليمن، وجميع العرب بنجد، والحجاز يستنفرهم للجهاد، ويرغّبهم فيه وفي غنائم الروم. فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كلّ أوب فعقد ثلاثة ألوية لثلاثة رجال: خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وشُرحبيل بن حَسَنة حليف بني جُمح (وشُرحْبيل فيما ذكر الواقدي ابن عبدالله ابن المُطاع الكندي وحسَنَة أمّه وهي مولاة مَعْمَر بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح، وقال الكلبي: هو شُرحْبيل بن ربيعة ابن المطاع من ولد صُوفة وهم الغَوث بن مُرّ ابن أُدّ بن طابخَة)، وعمرو بن العاص بن وائل السَّهْمي. وكان عقده هذه الألوية يوم الخميس لمستهلّ صفر سنة ١٣، وذلك بعد مقام الجيوش معسكرين بالجُرْف المحرَّم كلّه،

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، منشورات مؤسّسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٤٩.

وأبو عُبيدة بن الجرّاح يصلّي بهم. وكان أبو بكر أراد أبا عبيدة أن يعقد له فاستعفاه من ذلك؛ وقد روى قوم أنّه عقد له وليس ذلك بثبت. ولكنّ عمر ولاّه الشام كلّه حين استخلف. وذكر أبو مِخْنَف أنّ أبا بكر قال للأمراء: إن اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجرّاح الفِهري، وإلاّ فيزيد بن أبي سفيان، وذُكر أنّ عمرو بن العاصي إنّما كان مدداً للمسلمين وأميراً على من ضُمّ إليه. قال: ولمّا عقد أبو بكر لخالد بن سعيد كره عمر ذلك فكلّم أبا بكر في عزله، وقال إنّه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصُّب. فعزله أبو بكر ووجّه أبا أرْوى الدّوْسي لأخذ لوائه فلقيه بذي المَرْوَة فأخذ اللواء منه وورد به على أبي بكر فدفعه أبو بكر «رضه» إلى يزيد بن أبي سفيان. فسار به ومعاوية أخوه يحمله بين يديه. ويقال بل سُلّم إليه اللواء بذي المَرْوَة فمضى على جيش خالد، وسار خالد بن سعيد محتسباً في جيش شُرَحْبيل. وأمر أبو بكر «رضه» عمرو بن العاصي أن يسلك طريق أيْلَة عامداً لفلَسْطين، وأمر يزيد أن يسلك طرِيق تَبُوك. وكتب إلى شُرَحْبيل أن يسلك أيضاً طريق تَبُوك، وكان العقد لكلّ أمير في بدء الأمر على ثلاثة ألف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مع كلّ أمير سبعة آلاف وخمس مائة ثمّ تتامّ جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفا. ورُوي عن الواقدي أنّ أبا بكر ولّى عَمْراً فِلَسطين، وشُرَحْبيل الأردنّ، ويزيد دِمَشق، وقال: إذا كان بكم قتال فأميركم الّذي تكونون في عمله. وروي أيضاً أنّه أمر عَمْراً مشافهةً أن يصلّي بالناس إذا اجتمعوا، وإذا تفرّقوا صلّى كلّ أمير بأصحابه...».

الطبري، من جهته، نقل الرواية أيضاً مركّزاً على أسباب استبعاد خالد بن سعيد وتولية يزيد بن أبي سفيان مكانه، فكتب:(١)

«حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمَّد بن إسحاق، قال لما قَفَل أبو بكر من الحجّ سنة اثنتي عشرة جهّز الجيوش إلى الشام، فبعث عمرو بن العاص قِبَلَ فلسْطين، فأخذ طريق المُعْرِقة على أيْلة.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣١.

وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجرّاح وشُرحبيل بن حَسَنة - وهو أحد الغَوث - وأمرهم أن يسلُكوا التَّبُوكيَّة على البلقاء من عَلياء الشام.

وحدّثني عُمر بن شبّة، عن عليّ بن محمّد بالإسناد الذي ذكرت قبلُ، عن شيوخه الّذين مضى ذكرهم، قال: ثمّ وجّه أبو بكر الجنود إلى الشّام أوّل سنة ثلاث عشرة، فأوّل لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاصي، ثمّ عزله قبل أن يسير، وولّى يزيد بن أبي سفيان، فكان أوّل الأمراء الذين خرجوا إلى الشام، وخرجوا في سبعة آلاف.

قال أبو جعفر: وكان سببُ عزل أبي بكر خالد بن سعيد - فيما ذُكِر - ما حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر؛ أنّ خالد بن سعيد لمّا قدِم من اليمن بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ تربّص ببيعته شهرين، يقول: قد أمّرني رسول الله ﷺ، ثمّ لم يعزلني حتى قَبَضه الله. وقد لقي عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان؛ فقال: يا بني مناف؛ لقد طِبْتم نفساً عن أمركم يليه غيركم! فأمّا أبو بكر فلم يحفِلْها عليه، وأمّا عمر فاضطغنها عليه. ثمّ بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، وكان أوّل مَن استعمل على رُبْع منها خالد بن سعيد، فأخذ عمر يقول: أتؤمِّره وقد صنع ما صنع وقال ما قال! فلَم يزل بأبي بكر حتى عزله، وأمّر يزيد بن أبي سفيان.

كتب إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن مبشّر بن فُضَيل، عن جُبَير بن صخر حارس النبيّ ﷺ، عن أبيه، قال: كان خالد ابن سعيد بن العاصي باليمن زمن النبيّ ﷺ، وتوفّي النبيّ ﷺ وهو بها، وقدم بعد وفاته بشهر، وعليه جُبّة ديباج فلقِي عمرَ بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب. فصاح عمر بمن يليه: مزِّقوا عليه جُبّته! أيلبس الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور! فمزّقوا جُبّته، فقال خالد: يا أبا الحسن، يا بني عبد مناف، أغُلِبتم عليها! فقال عليّ عليه السلام: أمغالبة ترى أم خلافة؟ قال: لا يغالب على هذا الأمر أولى منكم يا بني عبد مناف. وقال عمر لخالد: فضّ الله فاك! والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت ثمّ لا يضرُّ إلا نفسه. فأبلغ عمر أبا بكر مقالته؛ فلمّا عقد أبو بكر الألوية لقتال أهل الردّة عقد له فيمن عقد، فنهاه عنه عمر وقال: إنه لمخذول، وإنه لضعيف التروئة؛ ولقد

كـذب كـذبـة لا يـفـارق الأرض مـدل بـهـا وخائضٌ فيها، فلا تستنصر به. فلم يحتمل أبو بكر عليه، وجعله رداءً بتَيْماء؛ أطاع عمر في بعض أمره وعصاه في بعض».

أ - أسـبـاب عـدم إرسـال الجيش مجتمعاً:

ويتساءل المراقب: لماذا لم يرسل أبو بكر جيش المسلمين مجتمعاً ويعين له قائداً عاماً واحداً؟

ولماذا حصل تحرّك الجيوش الإسلامية على دفعات، وذهبت كلّ دفعة في اتجاه معيّن؟ ولماذا لم تتحرّك هذه الجيوش كتلة واحدة مما يجعلها أقوى؟

للجواب على هذه التساؤلات رأى البعض أن ذلك يعود إلى عدم وجود خطة واضحة في فكر الخليفة حول مهمّة هذه الجيوش، أهي موجهة للفتح أم للإغارة فقط؟ وأن أبا بكر كان يوجّه كلّ قوّة تصله من قلب شبه الجزيرة العربية نحو الشمال خوفاً من بقائها في المدينة، لا سيما أن بعض القبائل كانت قد أخضعت منذ مدّة قصيرة بعد ارتدادها عن الإسلام.

لكن غالبية المحللين يرون غير ذلك.

فهم يعتقدون بأن الخليفة كان يملك خطة عسكرية واضحة للغزو ترتبط بعقلية المقاتل العربي المعتاد على الصحراء. وهذه الخطة أخذت في الاعتبار طبيعة المقاتل المسلم وأوضاعه، من حيث الإمكانات والتسلّح والقدرة على المجابهة وطرق القتال التي كان يطبّقها...

فالخليفة جنّد جيوشاً من قبائل شبه الجزيرة العربية التي يتقن أفرادها الأعمال العسكرية السريعة من الكرّ والفرّ، وغير المعتادين على الحروب النظامية التي تخوضها الجيوش الكبيرة. والعربي الجاهلي لا يلتزم بقواعد الزحف المنظّم والتقدّم الاستراتيجي نحو العدو. كما أن أسلحة المقاتلين خفيفة ومؤنهم قليلة جداً لذلك فإن سير كلّ مجموعة قبائل تنسجم في ما بينها أسهل من تقدّم مجموعات من مختلف القبائل معاً.

علاوة على ذلك كلّف أبو بكر كلّ جيش متقدّم فتح المناطق التي يجتازها في طريقه نحو بلاد الشام. لذلك كان توزيع الجيوش وسيرها على طرق مختلفة أفضل من سيرها مجتمعة.

وهكذا كان على قوات المسلمين غير النظامية محاربة جيوش نظامية لإحدى أعرق الإمبراطوريات في التحكّم بقواتها العسكرية.

لهذه الأسباب أرسل أبو بكر هذه القوات بمجموعات صغيرة لتدمّر كلّ بقعة تمرّ بها، ولتعمل على إجبار القوات البيزنطية عل اعتماد طريقتها في القتال بشكل مجموعات متفرّقة.[١]

وكان على القوات العربية أن تجتمع أحياناً لخوض معركة كبرى مع قوات الروم، كما جرى في اليرموك وأجنادين. وفي هذه المعارك يمكن للقوات العربية إنزال خسائر كبرى في العدو تمهيداً للمعركة الفاصلة.

ب - أبو بكر يرسل الجيوش إلى بلاد الشام:

كما سبق وذكرنا أعلن الخليفة النفير في الحجاز واليمن ونجد، فأسرعت إلى المدينة، عاصمة الخلافة، مجموعات من القبائل العربية لتتطوع وتجاهد في سبيل نشر الدين الجديد.

نظّم أبو بكر هذه المجموعات تباعاً في جيوش خمسة عدد كلّ منها بين ثلاثة وأربعة آلاف مقاتل، باستثناء جيش عمرو ابن العاص الذي بلغ عدده ثمانية آلاف. وتوزّعت الجيوش العربية كما يأتي:[٢]

١ - **الجيش الأول**: بقيادة يزيد بن أبي سفيان ومعه سهيل بن عمرو وجمع من أهل مكّة، وهدفه دمشق عن طريق تبوك. وأوصاه أبو بكر بالتالي:

«إذا نُصرتم على عدوّكم فلا تقتلوا وليداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، ولا تعقروا بهيمة إلاّ لمأكل، ولا تغدروا إذا عاهدتم، ولا تنقضوا إذا صالحتم. وستمرون على قوم في الصوامع حبسوا أنفسهم، فذروهم وما حبسوا أنفسهم له».

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٧، ص ٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٢، ص ٢٥٢.
- ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣ - ٤.

٢ - **الجيش الثاني**: بقيادة شرحبيل ابن حسنة وهدفه بصرى عاصمة حوران ومساندة الجيوش الأخرى.

وأوصاه أبو بكر بالآتي:

«إذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مثواهم، فإنه أول خبرك إليهم. وأقلل حبسهم حتى يخرجوا من عندك وهم جاهلون بما عندك. وامنع مَن قِبَلك من محادثتهم وكن أنت الذي تلي كلامهم. ولا تجعل سرّك مع علانيتك فيخرج أمرك. وإذا استشرتَ فأصدق الخبر تصدق لك المشورة، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قِبَل نفسك. وإذا بلغتك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها. واستر في عسكرك الأخبار، وأذكِ حراسك وأكثر مناجاتهم في ليلك ونهارك. وأصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك».

٣ - **الجيش الثالث**: بقيادة أبي عبيدة ابن الجرّاح وهدفه حمص ومساندة الجيوش الأخرى.

وأوصى أبو بكر أبا عبيدة قائلاً: «يا أمين الأمة، قد سمعت ما وصّيت به عمرو بن العاص».

٤ - **الجيش الرابع**: بقيادة عمرو بن العاص وهدفه فلسطين ومساندة الجيوش الأخرى. وأوصاه أبو بكر بما يأتي:

«كن والداً لمن معك، وارفق بهم في السير فإن فيهم أهل ضعف. وإذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وشرحبيل، بل اسلك طريق ايلياء (القدس) حتى تنتهي إلى أرض فلسطين. وابعث عيونك يأتوك بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافراً بعدوّه فكن أنت لقتال من في فلسطين، وإن كان يريد عسكراً فانفذ إليه جيشاً في إثر جيش. واحذر من عدوّك ومر أصحابك بالحرس، ولتكن بعد مطّلعاً عليهم. وواصل الجلوس بالليل مع أصحابك، وأقم بينهم، واجلس معهم، واتق الله إذا لاقيت عدوّك. وإذا وعظت أصحابك فأوجز. وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك. وتعهّد عسكرك في سيرك. وقدّم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك وخلّف على الناس من ترضاه».

٥ - **الجيش الخامس**: بقيادة عكرمة ابن أبي جهل: احتياط في المدينة.

بعد أن سارت الجيوش الأربعة عزّزها أبو بكر بمتطوّعين جدد فبلغ عددها الإجمالي ٢٨ ألف مقاتل. وكانت أول محطة لها في معان، على أن تفترق بعدها ويسلك كلّ جيش منها طريقه الخاص إلى مقصده.[١] لكن الفرقة الرابعة قصدت العقبة قبل أن تتجه شمالاً إلى فلسطين.

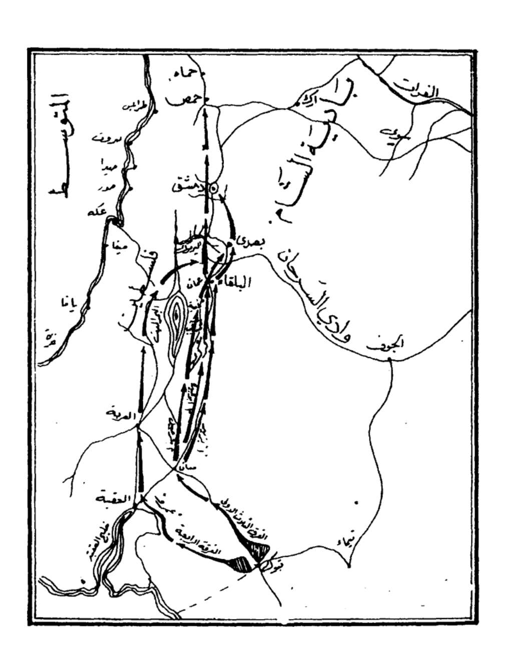
هكذا كان الوضع العسكري في بلاد الشام قبل انطلاق خالد بن الوليد من العراق في إتجاهها.

---

(١) انظر خريطة سير الجيوش إلى مقصدها.

خارطة رقم ١

سير الجيوش الإسلامية نحو بلاد الشام.



سلكت الجيوش الثلاثة الأولى طريق المدينة - تبوك - معان فوادي الأردن،[1] فيما سلك جيش عمرو بن العاص الطريق الموازية لشاطىء البحر الأحمر نحو جنوب فلسطين.

أولاً - سير الجيوش العربية

كانت مهمّة هذه الجيوش تقضي بمناوشة العدو وإنزال أكبر خسائر ممكنة بقواته من دون الاشتباك معه في معركة فاصلة. وعليها أن تسير نحو أهدافها بحذر، مساندة بعضها البعض، وإذا وجب اجتماع أكثر من جيش فيكون عليها قائد واحد.

الفصل الثاني
الجيوش المتواجهة في بلاد الشام

أ - فرقة خالد بن سعيد:

إنما وقبل التطرّق إلى أخبار هذه الجيوش، ننقل عن الطبري رواية عن فرقة خالد بن سعيد وسيرها باتجاه بلاد الشام، إذ كتب عن هذه الفرقة التي انضمّت عناصرها في ما بعد إلى جيش يزيد بن أبي سفيان:[2]

«كتب إليّ السريّ، عن شَعيب، عن سيف، عن أبي إسحاق الشيباني، عن أبي صفيّة التيمّي؛ تيْم بن شيبان، وطلحة عن المغيرة؛ ومحمّد عن أبي عثمان، قالوا: أمرَ أبو

---

(١) انظر الخريطة المرفقة.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٢.

بكر خالداً بأن ينزل تَيْماء، ففصل ردءاً حتى ينزل بتَيْماءَ؛ وقد أمره أبو بكر ألاّ يبرحها، وأن يدعُو مَن حوله بالانضمام إليه؛ وألاّ يقبل إلاّ ممَّن لم يرتدّ، ولا يقاتل إلاّ مَن قاتله؛ حتى يأتيه أمرُه. فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة؛ وبلغ الرّوم عِظَمُ ذلك العسكر، فضربوا على العرب الضّاحية البعوث بالشام إليهم. فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، وبنزول من استنفرت الرّوم؛ ونفر إليهم من بَهْراء وكلْب وسَليح وتنُوخ ولَخْم وجُذام وغَسّان من دون زيزاء بثلاث؛ فكتب إليه أبو بكر: أن أقدَم ولا تُحجِم واستنصِر الله. فسار إليهم خالد، فلمّا دنا منهم تفرّقوا وأعروا منزلهم؛ فنزله ودخل عامة من كان تجمَّع له في الإسلام. وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك؛ فكتب إليه أبو بكر: أقدِم ولا تقتحمنّ حتى لا تُؤتَى من خلفك. فسار فيمن كان خرج معه من تَيماء وفيمن لحق به من طرف الرمل؛ حتى نزلوا فيما بين آبل وزيزاء والقسطل؛ فسار إليه بِطْريقٌ من بطارقة الرُّوم، يُدعى باهان؛ فهزمه وقته جنده، وكتب بذلك إلى أبي بكر واستمدّه. وقد قدم على أبي بكر أوائل مستنفِري اليمن ومن بين مكّة واليمن؛ وفيهم ذو الكلاع. وقدم عليه عِكْرمة قافلاً وغازياً فيمن كان معه من تِهامة وعُمان والبحرين والسَّرو. فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدّلوا من استبدل؛ فكلّهم استبدل؛ فسُمّيَ ذلك الجيش جيش البِدال. فقدموا على خالد بن سعيد؛ وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشأم، وعناه أمرُه».

أكمل ابن كثير الرواية عن هزيمة فرقة خالد بن سعيد وثبات عكرمة بن أبي جهل أمام الروم، وانضمام عناصر الفرقة إلى فرقة معاوية بن أبي سفيان أثناء توجهه للانضمام إلى جيش شقيقة يزيد. كتب ابن كثير:(١)

«قال ابن جرير: ولمّا انتهى خالد بن سعيد إلى تيماء اجتمع له جنود من الروم في جمع كثير من نصارى العرب، من غيرا، وتنوخ، وبني كلب، وسليح، ولخم وجذام، وغسان، فتقدّم إليهم خالد بن سعيد، فلمّا اقترب

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص٤ -٥ .

منهم تفرّقوا عنه ودخل كثير منهم في الإسلام، وبعث إلى الصديق يعلمه بما وقع من الفتح، فأمره الصدّيق أن يتقدّم ولا يحجم؛ وأمدّه بالوليد بن عتبة وعكرمة بن أبي جهل وجماعة. فسار إلى قريب من إيلياء فالتقى هو وأمير من الروم يقال له ماهان فكسره، ولجأ ماهان إلى دمشق، فلحقه خالد ابن سعيد، وبادر الجيوش إلى لحوق دمشق وطلب الحظوة. فوصلوا إلى مرج الصَّفراء فانطوت عليه مسالح[1] ماهان وأخذوا عليهم الطريق، وزحف ماهان ففر خالد بن سعيد، فلم يرد إلى ذي المروة. واستحوذ الروم على جيشهم إلاّ من فرّ على الخيل، وثبت عكرمة بن أبي جهل، وقد تقهقر عن الشام قريباً وبقي ردءاً[2] لمن نفر إليه. وأقبل شرحبيل بن حسنة من العراق من عند خالد بن الوليد إلى الصديق، فأمّره على جيشه وبعثه إلى الشام، فلما مر بخالد بن سعيد بذي المروة، أخذ جمهور أصحابه الذين هربوا معه إلى ذي المروة. ثمّ اجتمع عند الصديق طائفة من الناس فأمّر عليهم معاوية بن أبي سفيان وأرسله وراء أخيه يزيد ابن أبي سفيان. ولمّا مرّ بخالد بن سعيد أخذ من كان بقي معه بذي المروة إلى الشام. ثمّ أذن الصديق لخالد بن سعيد في الدخول إلى المدينة وقال: كان عمر أعلم بخالد».

ب - تحركات الجيوش الإسلامية:

كانت الفرق الإسلامية تعمل للسيطرة على بلاد الشام، أي البقعة الممتدّة من غزة ومعان جنوباً إلى حمص شمالاً إلى الصحراء شرقاً وإلى سواحل البحر المتوسّط الشرقية غرباً. وهي منطقة واسعة جداً وتتمركز فيها قوات ضخمة تعود إلى الامبراطورية البيزنطية.

يضاف إلى ذلك بُعد المسافة التي تفصل هذه الجيوش عن قاعدتها الأساسية أي عن المدينة المنوّرة في الحجاز، كذلك صعوبة الاتصالات. وهذا ما دفع بالخليفة إلى تحديد طريق منفصلة على كلّ جيش أتباعها:

(١) مسالح: مراكز متقدّمة.

(٢) الردء: العون.

١ - جيش يزيد بن أبي سفيان:

سار الجيش الأول من تبوك إلى معان، ومنها إلى البلقاء فبصرى. وتصدّت له قوات بيزنطية كانت مرابطة في وادي عربة يقودها سرجيوس حيث دارت معركة الجلت عن انتصار للمسلمين ومتابعة سيرهم نحو دمشق حيث تمركزوا حولها في إنتظار وصول بقية الجيوش؛ وذلك قبل الإنسحاب لملاقاة الجيوش الإسلامية الأخرى في اليرموك حيث جرت المعركة الفاصلة.

٢ - الجيش الثاني بقيادة شرحبيل ابن حسنة:

انطلق جيش شرحبيل بعد أيام ثلاثة من انطلاق الجيش الأول، إذ أن أوامر أبي بكر له كانت: «إذا سار يزيد... أقم ثلاثاً ثمّ تيسّر للمسير».

نقل الطبري أن «شرحبيل قدم وافداً من عند خالد بن الوليد فأمّره الخليفة على الناس، ثمّ خرج معه أبو بكر يوصيه، فأتى شرحبيل على خالد،[1] ففصل بأصحابه إلاّ القليل. واجتمع إلى أبي بكر أناس، فأمّر عليهم معاوية، وأمره باللحاق بيزيد، فخرج معاوية حتى لحق بيزيد، فلمّا مرّ بخالد فصل ببقية أصحابه».[2]

والمؤكّد أن هذا الجيش انطلق من المدينة بعد أيام من جيش يزيد بن أبي سفيان سالكاً طريق معان، الكرك، البلقاء، فلم تعترضه في طريقه مقاومات بيزنطية. وأخيراً وصل إلى بصرى وحاصرها، إنما لم يتمكّن من فتحها، بل تراجع عنها في اتجاه اليرموك.

٣ - الجيش الثالث بقيادة أبي عبيدة ابن الجرّاح:

سلك الجيش الثالث طريق تبوك، معان، البلقاء، الجابية. واعترضته قوّة بيزنطية في قرية «مآب» حيث جرى قتال انتصر فيه المسلمون.[3] ثمّ احتل هذا الجيش الجابية

---

(١) هنا خالد بن سعيد.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٣.

(٣) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٥٦.

بسهولة قبل أن يتابع سيره ويصل إلى حمص.

وفي حمص طوّق الجيش الثالث المدينة ودخلها، فكانت أول مدينة في بلاد الشام تسقط في أيدي المسلمين. وقد فرض أبو عبيدة الجزية على أهل حمص، وذلك قبل أن يغادر المدينة للمشاركة في معركة اليرموك.

نقل البلاذري خبر تراجع المسلمين عن حمص فكتب:[1]

«وحدّثني أبو حفص الدمشقي قال حدَّثنا سعيد بن عبد العزيز، قال بلغني أنّه لمّا جمع هِرَقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليَرموك، ردّوا على أهل حِمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: قد شُغِلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لَولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممّا كنّا فيه من الظلم والغشم، ولندفعنّ جند هِرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هِرْقل مدينة حمص إلاّ أن نُغلب ونُجهد؛ فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى، واليهود».

لكن البيزنطيين دخلوا مدينة حمص بعد تراجع أبي عبيدة عنها ونكّلوا بأهلها لتعاونهم معه:[2]

٤ - الجيش الرابع بقيادة عمرو بن العاص:

كتب البلاذري: «ذكر أن عمرو بن العاص إنما كان مدداً للمسلمين وأميراً على من ضُمّ إليه». كما نقل أن الخليفة أمر عمراً أن يسلك طريق «أيلة» عامداً لفلسطين، وأنه ولاه فلسطين فيما ولى شرحبيل الأردن ويزيداً دمشق.[3]

سلك جيش عمرو بن العاص طريق ساحل البحر الأحمر حتى العقبة فوادي

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٢) هذا الموضوع سنفصله لاحقاً في هذا الكتاب.

(٣) البلاذري، المرجع نفسه، ص ١٥٠.

عربة فالبحر الميت. اعترض البيزنطيون تقدم عمرو مرات عدّة كان يهزمهم فيها دائماً. نقل البلاذري أن «أول وقعة واقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق كانت بأرض فلسطين وعلى الناس عمرو بن العاص. ثمّ أن عمرو بن العاص فتح غزة ثمّ فتح بعد ذلك سَبَسْطِيّة ونابلس على أن أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم، وعلى أن الجزية على رقابهم، والخراج على أرضهم. ثمّ فتح مدينة لُدّ وأرضِها، ثمّ فتح يُبنى وعَمْواس وبيت جبرين، واتخذ بها ضيعة تدعى عَجلان باسم مولى له، وفتح يافا ورفح».(1)

ثمّ اتجه عمرو في زحفه نحو بيت المقدس، لكن الروم كانوا قد اعدوا جيشاً كبيراً بقيادة تيودور شقيق الامبراطور هرقل، بعد أن التحقت به فلول جيش سرجيوس الذي هزم في وادي عربة على يد يزيد بن أبي سفيان. وفي الوقت نفسه تحرّك جيش انطاكية البيزنطي من الشمال لمحاربة الجيوش الإسلامية الثلاثة المتجهة إلى بلاد الشام ومنعها عن نجدة جيش عمرو.

إثر هذه التطوّرات رأى عمرو أن إمكاناته لا تسمح له بمجابهة الروم فاتجه إلى غور الأردن، ثمّ إلى الجابية ليشارك في ما بعد بمعركة اليرموك.

ثانياً – وضع الجيوش العربية بعد وصولها إلى بلاد الشام

بعد وصول الجيوش الإسلامية التي أرسلها أبو بكر إلى مقاصدها، وأمام الحشود التي حشدها الروم لمحاربتها، عزّزها الخليفة أبو بكر بحيث أصبح كلّ جيش من جيوشها الأربعة يضم سبعة آلاف مجاهد فبلغ تعدادها ٢٨ ألفاً قبل أن ينضم إليها خالد بن الوليد. وبعد انضمام خالد، بلغ تعدادها ٤٠ ألفاً، وهو أكبر عدد بلغته هذه الجيوش على جبهة بلاد الشام.

أ - تحويل خالد بن الوليد إلى جبهة الشام:

بعد عودته من الحج تلقى خالد بن الوليد أمراً من الخليفة بالسير من العراق إلى

(1) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٨٨.

الشام،[1] وذلك بعد أن لفت أمراء الجيوش في الشام إلى ضرورة تعزيز قواتهم فيها بسبب حجم الجيوش الرومية الكبير.

روى ابن الأثير رواية مسير خالد إلى الشام، فكتب:[2]

«**ذكر مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام:**

لما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إليهم، والحث، وأن يأخذ نصف الناس، ويستخلف على النصف الآخر المُثنّى بن حارثة الشيباني، ولا يأخذن مَنْ فيه نجدة إلاّ ويترك عند المثنى مثله. وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق فاستأثر خالد بأصحاب النبيّ ﷺ على المثنى، وترك للمثنى عدادهم من أهل القناعة مَنْ ليس له صُحْبة. ثمّ قسّم الجُنْد نصفين فقال المثنى: «والله لا أقيم إلاّ على إنفاذ أمر أبي بكر [كلّه في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف]. وبالله ما أرجو النصر إلاّ بأصحاب النبيّ ﷺ [فإني تعريني عنهم]». فلمّا رأى خالد ذلك أرضاه [ومضى لوجهه وشيعه المثنى إلى قراقر،[3] ثمّ رجع إلى الحيرة في المحرم].

وقيل: سار من العراق في ثمانمائة وقيل: في خمسمائة، وقيل في تسعة آلاف، وقيل: في ستة آلاف، وقيل: إنما أمره أبو بكر أن يأخذ أهل القوة والنجدة فأتى حدوداء فقاتله أهلها فظفر بهم وأتى المصيّخ وبه جمع من تغلب فقاتلهم وظفر بهم وسبى وغنم. وكان من السبي «الصهباء بنت حبيب بن بجير»، وهي أم عمر بن علي بن أبي طالب - وقيل: في أمرها ما تقدم -، وقيل: سار خالد فلما وصل إلى قراقر - وهو ماء لكلب - أغار على أهلها وأراد أن يسير عنهم مفوِّزاً[4] إلى سُوى وهو ماء لبهراء بينهما خمس ليال

(١) للاطلاع على نص كتاب أبي بكر يمكن مراجعة مقدمة هذا الكتاب.

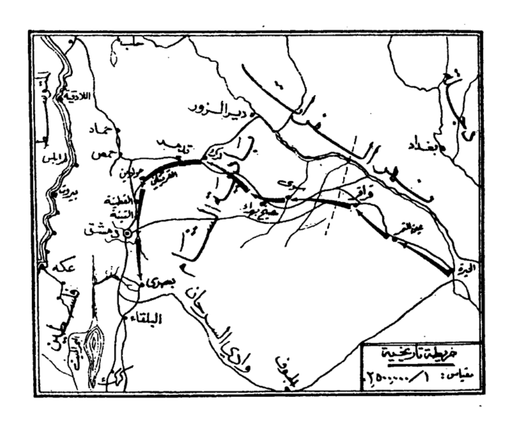
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

(٣) قراقر: وادي في الدهناء.

(٤) أي يسير عبر المفازة أي الصحراء.

خارطة رقم ٢

الطريق التي سلكها خالد بن الوليد من العراق إلى الشام



[فلم يهتد]. فالتمس دليلاً فدُلّ على رافع ابن عَميرة الطائي فقال له في ذلك. فقال له رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال، فوالله إن الراكب المفرد يخافه على نفسه، وما يسلكها إلاّ مغروراً إنها لخمس جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها. فقال [خالد ويحك] أنه لا بدّ لي من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم لئلا تحسبني عن غياث المسلمين.

فأمر صاحب كلّ جماعة أن يأخذ الماء للشعبة لخمس، وأن يعطّش من الابل الشرف[1] ما يكتفي به ثمّ يسقوها عللاً بعد نهل،[2] والعلل الشربة الثانية، والنهل الأولى، ثمّ يصرّوا آذان الإبل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر. ثمّ ركبوا من قراقر، فلما ساروا يوماً وليلة شقوا لعدّة من الخيل بطون عشرة من الإبل فمزجوا ماءً في كروشها بما كان من الالبان وسقوا الخيل، ففعلوا ذلك أربعة أيام. فلما [خشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عَمِيرة: ويحك يا رافع ما عندك؟ قال: أدركت الرّيّ إن شاء الله]. فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجرة عَوْسَج كقعدة الرجل؟ فقالوا: ما نراها، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. هلكتم والله [إذاً] وهلكتُ معكم - وكان أرمد فقال لهم: انظروا ويحكم. فنظروا فرأوها قد قُطِعت وبقي منها بقية، فلما رأوها كبّروا. فقال رافع: احفروا في أصلها فحفروا واستخرجوا عيناً فشربوا حتى روى الناس [فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل]. فقال رافع: والله ما وردتُ هذا الماء قط إلاّ مرّة واحدة مع أبي وأنا غلام.

فلمّا انتهى خالد إلى سُوى أغار على أهلها وهم بهراء [قبيل الصبح] وهم يشربون الخمر [في جفنة قد اجتمعوا إليها] ومغنّيهم يقول:

أَلاَ عَلِّلانِي قَبل جَيش أَبي بَكرِ
لَعلَّ مَنَايَانَا قَرِيبٌ ولا نَدرِي
أَلاَ عَلِّلانِي بالزُجَاجِ وكَرِّرا
على كُمَيتِ اللونِ صَافِيةٍ تَجرِي

---

(١) هو جمع شارف: المسنة من النوق.
(٢) النّهل: هو الشرب الأول.
والعلل: الشربة الثانية. ومراده أن يعطشوا الابل ثمّ تشرب شرباً شرهاً حتى تتضلع.

فقتل المسلمون مغنيهم وسال دمه في تلك الجفنة، وأخذوا أموالهم، وقتل حرقوص بن النعمان البهراني ثمّ أتى أرَك فصالحوه. ثمّ أتى تَدمر فتحصن أهله ثمّ صالحوه. ثمّ أتى القريتين، فقاتلهم فظفر بهم، وغنم. وأتى حوارين فقالت أهلها فهزمهم وقتل وسبى. وأتى قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاعة. وسار فوصل إلى ثنية العقاب عند دمشق ناشراً رايته وهي راية سوداء، وكانت لرسول الله ﷺ تسمى «العقاب» - وقيل: كانت رايته تسمى العقاب فسميت الثنية بها، وقيل: سميت بعقاب من الطير سقطت عليها، والأول أصح -. ثمّ سار فأتى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فِصْحهم فقتل وسبى. وأرسل سرية إلى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال، وسبوا النساء، وساقوا العيال إلى خالد. ثمّ سار حتى وصل إلى بُصْرى فقاتل مَنْ بها فظفر بهم. وصالحهم. فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد، وأهل العراق، وبعث بالأخماس إلى أبي بكر. ثمّ سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر. وطلع باهان على الروم، ومعه الشمامسة، والقسيسون، والرهبان يحرِّضون الروم على القتال، وخرج باهان كالمعتذر فولى خالد قتاله. وقاتل الأمراءُ مَنْ بإزائهم، ورجع باهان والروم إلى خندقهم وقد نال منهم المسلمون».

ب - وضع الجيش الإسلامي:

كان الجيش الإسلامي الذي تجمّع في بلاد الشام، بعد التحاق خالد بن الوليد به، يتألّف من خمسة جيوش مختلفة وعناصرها متنوّعة القبائل، إنما يجمعها الدين الإسلامي والحماس للجهاد في سبيل الله، وقيمة المقاتل العربي الذي سبق الحديث عنها. كما أن الجيوش الاسلامية تمتاز بنوعية قادتها الذين تمرّسوا في فن الحرب في حياة النبيّ ﷺ وفي حروب الردة.

لذلك يمكننا القول أن الجيوش الإسلامية، ورغم قلّة عديدها، كانت تمتاز بتماسكها وتتمتع بمواصفات تؤهلها لخوض المعارك ضد جيوش الروم التي تفوقها عدداً وعدّة وتحارب في أرضها. وهذا ما أثبتته المعارك التي وقعت في بلاد الشام بين الفريقين.

إضافةً إلى ذلك يتمتع المقاتل العربي بميزات أخرى، أهمها سرعة حركته وخفّة أثقاله وتعوّده شظف العيش وقلّة الطعام والقتال على ظهور الرواحل والخيول. كما أن الجيوش التي قادها خالد بن الوليد كانت تنتقل دوماً بجهوزية تامة لمباشرة القتال فوراً، وهذا ما فاجأ الجيوش التي واجهتها.

أما عديد الجيوش العربية، فكان قد بلغ ٢٨ ألفاً كما أسلفنا قبل التحاق جيش خالد ابن الوليد بها، و٤٠ ألفاً في معركة اليرموك، وتتألّف من خمسة جيوش، أربعة عديد كلّ منها سبعة آلاف مقاتل يقودها أبو عبيدة ويزيد وشرحبيل وعمرو بن العاص. أما الجيش الخامس فيقوده خالد بن الوليد الذي عيّنه الخليفة قائداً عاماً للجيوش الخمسة. يضاف إلى هذه القوى جيش سادس بقيادة عكرمة بن أبي جهل شكل احتياطاً عاماً في المدينة المنوّرة.

ثالثاً – وضع جيش الروم

الامبراطورية البيزنطية هي وارثة المجد الروماني منذ السنة ٤٧٦م، تاريخ سقوط جزئها الغربي. وكانت هذه الامبراطورية تدعى يومذاك الامبراطورية الرومانية الشرقية.

سيطرت هذه الامبراطورية على مناطق واسعة جداً تحيط بحوض البحر المتوسّط الشرقي، من اليونان إلى آسيا الصغرى والشرق الأدنى وشمال افريقيا. وكانت تهيمن في شكل قوي على هذا الحوض بواسطة أساطيلها القوية. وكان مركز قيادتها العامة في القسطنطينية، حيث يتربّع الامبراطور على عرش له من التاريخ ما يؤهّله لقيادة هذا العالم الواسع.

كانت هذه الامبراطورية تواجه في الشرق إمبراطورية أخرى، هي المملكة الساسانية، حيث كانت الحروب بينهما شبه متواصلة، انتهت بسيطرة بيزنطية على بلاد الشام قبل أن تتواجه مع قوّة جديدة منبعثة من الصحراء سبق الحديث عنها.

كان يحكم كلاً من المقاطعات البيزنطية حاكم عام يقيم في مركز كلّ مقاطعة ويملك السلطة المطلقة على سائر الشؤون الإدارية والمالية والقضائية. يساعده عدد كبير من المستشارين والموظفين، وخاصة قائد

عسكري يقود كلّ الجيوش البيزنطية في المقاطعة.

ربط البيزنطيون المدن بطرق معبّدة، وزوّدوها بالحصون والأبراج والأسوار والخنادق والمحاربين للدفاع عنها. كما رابطت فيها جيوش تتألّف من البيزنطيين والمحليين والمرتزقة، يقودها القائد العام، يعاونه قائدان للمشاة وللخيالة.

أما في بلاد الشام، فكان للبيزنطيين جيشان:[١]

- الجيش الأول، مركزه فلسطين وعديده ٧٠ ألف مقاتل.
- الجيش الثاني، مركزه انطاكية وعديدة ٢٠٠ ألف مقاتل.

معظم المقاتلين كانوا من الأرمن وروم الأناضول. وتمركزت القوات البيزنطية في مراكز ستة هي انطاكية وقنسرين وحمص وعمّان وأجنادين وقيسارية.[٢]

هذه الجيوش هي التي صارعت الجيوش الإسلامية في بلاد الشام حيث كانت تتمركز في حصونها وتفيد من وسائل مواصلاتها. ولديها كلّ ما تحتاج من أسلحة ثقيلة وخفيفة وخيول ووسائل الحرب والاتصال، وتقاتل في مناطق تعرفها وقريباً من مراكز تموينها. لكنها كانت بطيئة في تحرّكها ولا يجمعها جامع واحد يحمّسها للقتال. لذلك، فإن أول بادرة ضعف في هذه الجيوش قد تتحوّل إلى هزيمة نكراء. وهذا ما حصل بالفعل في معركة اليرموك.

خطة الامبراطور هرقل للمجابهة:

عندما بلغ هرقل خبر إرسال الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام، خرج من القسطنطينية ونزل في حمص، حيث أعدّ الجنود وعبّأ العسكر وراح يرسل الجيوش لمجابهة العرب.

نقل الطبري عرضاً للقوى التي أرسلها هرقل ضمن خطته الرامية لمحاربة المسلمين، فكتب:[٣]

«وبلغ الرّوم ذلك؛ فكتبوا إلى هرقل؛ وخرج هرقل حتى نزل بحِمْص، فأعدّ لهم

(١) أمين سعيد، حروب الاسلام والامبراطورية الرومية، القاهرة، ١٩٣٥، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢)أمين سعيد، المرجع نفسه، ص ٧٨.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٤.

الجنود، وعبّى لهم العساكر؛ وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده، وفضول رجاله. وأرسل إلى عمرو أخاه تَذارق لأبيه وأمّه، فخرج نحوهم في تسعين ألفاً، وبعث مَن يسوقهم، حتّى نزل صاحب الساقة ثنيّة جِلّق بأعلى فلسطين. وبعث جَرَجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان، فعسكر بإزائه، وبعث الدُّراقص فاستقبل شُرحبيل بن حَسَنة، وبعث إلفيقار بن نَسْطوس في ستّين ألفاً نحو أبي عبيدة».

إذن، أرسل هرقل تسعين ألفاً لمواجهة عمرو بن العاص وستين ألفاً لمواجهة كلّ من الجيوش الباقية.

أما ابن كثير، فنقل رواية أخرى عن رغبة هرقل بمصالحة العرب وتراجعه عن هذه الرغبة بعد أخذ رأي أخصائه، فكتب:[1]

«ولمّا توجّهت هذه الجيوش نحو الشام أفزع ذلك الروم وخافوا خوفاً شديداً، وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بما كان من الأمر. فيقال إنه كان يومئذٍ بحمص، ويقال: (بل) كان حجّ عامه ذلك إلى بيت المقدس. فلمّا انتهى إليه الخبر، قال لهم: ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام ويبقى لكم جبال الروم. وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم. فنخروا[2] من ذلك نخرة حمر الوحش كما هي عاداتهم في قلّة المعرفة والرأي بالحرب والنصرة في الدين والدنيا. فعند ذلك سار إلى حمص وأمر هرقل بخروج الجيوش الرومية صحبة الأمراء، في مقابلة كلّ أمير من المسلمين جيش كثيف، فبعث إلى عمرو بن العاص أخاً له لأبويه «تذارق» في تسعين ألفاً من المقاتلة. وبعث جرجة بن بوذيها إلى ناحية يزيد بن أبي سفيان، فعسكر بإزائه في خمسين ألفاً أو ستين ألفاً. وبعث الدرفص[3] إلى شرحبيل بن حسنة، وبعث اللقيقار ويقال القيقلان - قال ابن إسحاق وهو خصيّ هرقل نسطورس - في ستين ألفاً

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥.

(٢) نخر: مدّ صوته من منخريه.

(٣) في الطبري: الدُّراقص، وهو الأصحّ.

إلى أبي عبيدة بن الجراح. وقالت الروم: والله لنشغلنّ أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا».

ففي رواية ابن كثير أن هرقل وجّه خمسين ألفاً أو ستين ألفاً من المقاتلين نحو يزيد، وستين ألفاً إلى أبي عبيدة.

وبعد أن قرّرت الجيوش الإسلامية الاجتماع للمجابهة عاد هرقل وأعطى أوامره لجيوشه، فاجتمعت في الواقوصة، كما كتب الطبري:(١)

«وبلغ ذلك هرقل، فكتب إلى بطارقته: أن اجتمعوا لهم، وأنزلوا بالرّوم منزلاً واسع العَطَن، واسع المطّرد، ضيّق المهرَب؛ وعلى الناس التّذارق وعلى المقدمة جَرجَة، وعلى مجنَّبتيْه باهان والدُّراقص، وعلى الحرب اللقيقار؛ وأبشروا فإن باهان في الأثر مددٌ لكم. ففعلوا فنزلوا الواقوصة وهي على ضفّة اليرموك، وصار الوادي خَنْدقاً لهم؛ وهو لهِبٌ لا يدرَك؛ وإنما أراد باهان وأصحابه أن تستفيق الرّوم ويأنسوا بالمسلمين؛ وترجع إليهم أفئدتهم عن طِيَرَتها».

رابعاً – خطة المسلمين

كانت خطة المسلمين الأولى تقضي بإنهاك العدو واستنزافه وعدم الاشتباك معه في معركة كبرى قبل وصول الفرق إلى مقصدها، مع إمكان مساعدة فرقة للأخرى.

إنما، وبعد توجيه هرقل فرقه نحوهم، كانت ردّة فعلهم أن يجتمعوا لمجابهة الروم. ونقل الطبري أن فكرة اجتماعهم جاءت من عمرو ابن العاص، إذ كتب:(٢)

«فهابهم المسلمون وجميع فِرَق المسلمين واحد وعشرون ألفاً؛ سوى عكرمة في ستّة آلاف؛ ففزعوا جميعاً بالكتُب وبالرّسل إلى عمرو: أن ما الرأي؟ فكاتبهم وراسلهم: إنّ الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلَب من قلّة؛ وإذا نحن تفرّقنا لم يبق الرّجل منا في عدد يُقرن فيه لأحد ممّن استقبلنا وأعِدّ لنا لكلّ طائفة منّا. فاتّعَدوا اليرموك ليجتمعوا به، وقد كتب إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمراً. فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو، بأن اجتمعوا فتكونوا عسكراً

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٤.

(٢) الطبري، المرجع نفسه.

واحداً، وألقَوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله؛ والله ناصرٌ مَن نصره، وخاذلٌ من كَفره. ولن يؤتى مثلُكم من قلّة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتَوا مِن تلقاء الذنوب. فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين وليُصلِّ كلّ رجل منكم بأصحابه»

أمّا ابن كثير وابن الأثير، فنقلا أن الأمراء المسلمين كتبوا إلى أبي بكر الذي أشار عليهم بالتجمّع. كتب ابن كثير:[1]

«وجميع عساكر المسلمين أحد وعشرون ألفاً سوى الجيش الذي مع عكرمة بن أبي جهل. وكان واقفاً في طرف الشام ردءاً للناس - في ستة آلاف - فكتب الأمراء إلى أبي بكر وعمرو يعلمونها بما وقع من الأمر العظيم، فكتب إليهم أن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً وألقوا جنود المشركين، فأنتم أنصار الله والله ينصر من نصره، وخاذل من كفره. ولن يؤتى مثلكم عن قلّة، ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها، وليصل كلّ رجل منكم بأصحابه».

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦.



الفصل الثالث
المعارك في بلاد الشام

رغم كثرة الجيوش في بلاد الشام من المسلمين والروم، فإن المعارك لم تبدأ بينهما فيما كانت الاستعدادات قائمة من الجانبين، رغم بعض المناوشات البسيطة نذكر بعضاً منها:

أولاً – وقائع خالد في طريقه إلى الشام

أ – فعند وصول خالد أرض الشام إلى مكان يسمّى «قُصَم» تنزل فيه قبيلة قضاعة صالحه أهلها على دفع الجزية فكتب لهم كتاب صلح جاء فيه:(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب خالد بن الوليد مشجعة (بطن من قضاعة) أن لهم ساقية قُصَم عذبها وسقيها وجلدها عامر الأرض من شرقيها، وأن لأهل الغوطة من غربيها».

ب – ثمّ أتى خالد مدينة تدمر فامتنع أهلها وتحصّنوا، ثمّ خرجوا يريدون قتاله في جموع غفيرة. واندلع قتال عنيف بين الفريقين على رمال الصحراء، وصمد الروم وخسر المسلمون أربعة شهداء.

إلاّ أن خالداً عاد وشدّد عزائم المسلمين فاندفعوا يشدّون شدّة رجل واحد. وقاتل خالد بطريقاً من بطارقتهم فقتله. ثمّ هجم المسلمون واعملوا السيف في رقاب أعدائهم الذين انهزموا ودخلوا تدمر وأغلقوا أبوابها.

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٥٤.

وحاصر المسلمون تدمر فصالح خالد أهلها على مال وزّعه على جنده.[١]

ج - تابع خالد سيره فوصل إلى بلدة اسمها «القريتين»، فقاتله أهلها فهزمهم واستولى من بلدتهم على غنائم كثيرة.[٢]

د - بعدها قصد حُوّارين[٣] التي خاف أهلها وتحصنوا في بيوتهم وحصونهم. حاصرهم خالد ونشبت معركة استولى خلالها المسلمون على مواشي البلدة وأموال كلّ ما كان في خارجها.

وتابع خالد محاصرة المدينة التي جاءها مدد من بعلبك بحوالى ألفي مقاتل، ومن بصرى حوالى ألفين آخرين، فخرج أهل حوارين وانضمّوا إلى المدد.

صفّ خالد صفوفه مقابل صفوف الروم وحلفائهم فجرت معركة قوية كانت نتيجتها هزيمة جيش حُوارين وقتل عدد كبير من جنوده.[٤]

أخيراً، ولمّا رأى أهل حُوارين أن لا طاقة لهم على حرب جيش خالد، صالحوه على دفع الجزية بعد أن هزموا جميعهم ودخلوا بلدتهم.

هـ - أراد بنو غسان التصدي لخالد بن الوليد بعد أن بلغتهم أخبار انتصاراته، فتجمّعوا في مرج راهط بقيادة الحارث شقيق جبلة بن الأيهم.

هاجمهم المسلمون ودارت معركة عنيفة انجلت عن خسارة بني غسان الذين فرّق خالد صفوفهم وسبى ذراريهم ونساءهم وأولادهم. وغنم المسلمون من تلك الموقعة مالاً كثيراً أرسل خالد خمسه إلى الخليفة ووزع الأخماس الباقية على المقاتلين.[٥]

و - أرسل خالد، بعد أن أشرف على غوطة دمشق، بُشراً بن ارطأة العامري من قريش وحبيباً بن مسلمة الفهري إلى الغوطة

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٧.
(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٥٤.
(٣) من قرى حلب.
(٤) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٥٤.
(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٧.
- ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٥٨.

فأغارا على قرى من قراها وغنما أموالاً كثيرة.[١]

ز - سار خالد حتى وصل إلى «الثنية» التي تعرف بثنية العقاب بدمشق فوقف عليها ساعة ونشر راية العقاب التي كانت لرسول الله ﷺ، وهي سوداء، فسميت «ثنية العقاب». ونزل بالباب الشرقي من دمشق.

نقل البلاذري أن: «خالد سار حتى انتهى إلى المسلمين وهم بقناة بُصرى، ويقال إنه أتى الجابية وبها أبو عبيدة في جماعة من المسلمين فالتقيا ومضيا جميعاً إلى بصرى».[٢]

وعندما رأى المقاتلون في جيش يزيد بن أبي سفيان راية خالد في «ثنية العقاب» صرخوا:

«والله هذه العقاب، راية خالد بن الوليد».

وبوصول خالد أمام مدينة دمشق اكتمل عقد الجيوش الاسلامية أمامها، فدخل أهل المدينة داخلها وأقفلوا أبوابهم التسعة وتحصنوا فيها. ونزل خالد في دير[٣] يبعد كيلومتر عن الباب الشرقي بدمشق.

ح - فتح بصرى:

عندما وصل خالد إلى بصرى، اجتمع بالقادة الثلاثة، أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد، فيما كان عمرو بن العاص لا يزال ينسحب بموازاة الضفة الغربية للأردن يتعقبه جيش سرجيوس.

درس القادة الأربعة الوضع العسكري، وكانت الفرق الإسلامية قد بلغت بوصول خالد إلى الغوطة ٣٣٠٠٠ مقاتل بين فارس وراجل موزعين كما يلي:

- ٩٠٠٠ جيش خالد في الغوطة.[٤]
- ٧٠٠٠ جيش أبي عبيدة بن الجراح في الجابية.
- ٧٠٠٠ جيش يزيد بن أبي سفيان في البلقاء.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٣) سمي إلى اليوم «دير خالد».

(٤) اختلف المؤرّخون حول عديد جيش خالد الذي انطلق به من الحيرة، فقيل عشرة آلاف، وقيل ٩٠٠٠، وقيل خمسمائة.

- ٧٠٠٠ جيش شرحبيل بن حسنة على منابع نهر اليرموك بالأردن.
- ٣٠٠٠ جيش عمرو بن العاص المتجه نحو آيلة.(١)

اتجه خالد جنوباً فضمّ إليه أبا عبيدة في الجابية واتجه نحو بصرى حيث كان شرحبيل مرابطاً بقربها.(٢)

وهاجم خالد مدينة بصرى، بعد أن قسم قواته إلى قسمين هاجمها كلّ قسم من جهة، فدخل إليها أهلها وتحصّنوا فيها. لكنهم لم يستطيعوا الصمود أكثر من ليلة واحدة طلبوا بعدها الصلح.

كتب البلاذري واصفاً سقوط بصرى:(٣)

«قالوا: لمّا قدم خالد بن الوليد على المسلمين بُصرى اجتمعوا عليها وأمّروا خالداً في حربها، ثمّ ألصقوا بها وحاربوا بطريقها حتّى ألجؤوه وكُماة أصحابه إليها. ويقال بل كان يزيد بن أبي سفيان المتقلّد لأمر الحرب لأنّ ولايتها وإمْرتها كانت إليه لأنّها من دمشق، ثمّ أنّ أهلها صالحوا على أن يؤمَنوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم على أن يؤدُّوا الجزية. وذكر بعض الرواة أنّ أهل بُصرى صالحوا على أن يؤدّوا عن كلّ حالم ديناراً، وجريب حنطة. وافتتح المسلمون جميع أرض كورة حوْران وغلبوا عليها. قال وتوجّه أبو عبيدة بن الجرّاح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحاب الأمراء ضُمّوا إليه فأتى مَآب من أرض البَلقاء وبها جمع العدوّ، فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرَى، وقال بعضهم إنّ فتح مَآب قبل فتح بُصرَى، وقال بعضهم إنّ أبا عبيدة فتح مَآب وهو أمير على جميع الشام أيّام عمر».

هكذا، ووفق البلاذري، فتح أبو عبيدة مآب.

أما خالد، فقد تابع تطهير منطقة حوران من الأعداء الذين فروا بكلّ اتجاه ليلتحقوا بحامياتهم. نقل ابن كثير أن بصرى «كانت أول مدينة فتحت من الشام».(٤)

---

(١) إيلات اليوم.

(٢) كانت بصرى حاضرة بلاد حوران ومركزها الديني حيث تنتشر الكنائس والأديرة.

(٣) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٧.

ولَمّا أتمَّ خالد فتح حوران، ترك فيها شرحبيل بن حسنة بعد أن دخل المدينة وأقام معسكره فيها. ثمّ رجع كلّ قائد مسلم إلى موقعه السابق تمهيداً لفتح دمشق.

ثانياً – معركة اجنادين

لما بلغت أنباء سقوط بصرى وحوران بيد المسلمين مسامع هرقل غضب، خاصة أنه ارتأى سابقاً مصالحة المسلمين، فأشار عليه أخصاؤه بمقاومتهم. وقرّر المواجهة وإرسال جيش حمص بقيادة وردان[1] للانضمام إلى جيش سرجيوس في «جِلّق» بفلسطين، على أن ينضم إليهم العرب المؤيّدون لهم. وقضت الخطة بأن يعمد وردان إلى مهاجمة شرحبيل في بصرى من دون التعرّض لخالد ابن الوليد، وذلك بهدف فصل جيش شرحبيل عن باقي القوات الإسلامية. وقضت الخطة أيضاً بأن ينضمّ جيش وردان إلى جيش سرجيوس في اجنادين، بعد القضاء على جيش شرحبيل.

أما المسلمون، فقد أمرهم خالد بأن يجتمعوا في اجنادين، فاجتمعت كلّ جيوشهم فيها، بما فيها جيش عمرو بن العاص.

بلغ عدد جيش القبقلار أو وردان مائة ألف مقاتل من الروم والعرب والموالين لهم، فيما نظّم خالد جيشه فجعل الضحّاك على ميمنته، وسعيد بن خالد بن العاص على ميسرته، وأبا الدرداء على الساقة، وتولّى هو قيادة القلب.

كتب الطبري عن معركة أجنادين ما يأتي:[2]

«ثمّ ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو ابن العاص، وعمرو مقيم بالعربات مِن غَور فلسطين. وسمعت الرّوم بهم، فانكشفوا عن جِلّق إلى أجنادين؛ وعليهم تذارق أخو هِرقل لأبيه وأمّه – وأجنادين بلد بين الرّملة وبيت جَبْرين من أرض فلسطين – وسار

(١) وردان لقبة «القبقلار».

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٤٦. – ٣٤٧.

عمرو بن العاص حين سمع بأبي عبيدة بن الجرّاح وشُرحبيل بن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان حتى لقيَهم، فاجتمعوا بأجنادين؛ حتى عسكروا عليهم.

حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن محمّد بن إسحاق، عن محمّد بن جعفر بن الزّبير، عن عُروة بن الزبير، أنّه قال: كان على الرّوم رجل منهم يقال له القُبُقْلار؛ وكان هرقِل استخلفه على أمراء الشام حين سار إلى القسطنطينية، وإليه انصرف تذَارق بمن معه من الروم. فأما علماء الشام فيزعمون أنّما كان على الرّوم تَذارِق. والله أعلم.

وكانت وقعة أجنادين في سنة ثلاث عشرة لليلتين بقِيتا من جُمادى الأول. وقتل يومئذ من المسلمين جماعةٌ؛ منهم سلمة بن هشام بن المغيرة، وهبّار بن الأسود بن عبد الأسد، ونعيـــم بن عبدالله النحّام، وهشام ابن العاصي بن وائل، وجماعة أخر من قُريش. قال: ولم يسمّ لنا من الأنصار أحدٌ أصيب بها».

البلاذري أيضاً، كتب عن معركة أجنادين ما يأتي:[1]

«ثمّ كانت وقعة أجنادين وشهدها من الروم زهاء مائة ألف، سرّب هِرقل أكثرهم وتجمّع باقوهم من النواحي، وهِرَقْل يومئذ مقيم بحِمْص. فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاءً حسناً ثمّ أنّ الله هزم أعداءه ومزّقهم كلّ مُمَزَّق، وقُتل منهم خلق كثير.

قالوا ولمّا انتهى خبر هذه الوقعة إلى هِرَقل نخِب قلبه وسقط في يده ومُلِي رعباً فهرب من حمص إلى أنطاكية. وقد ذكر بعضهم أنّ هربه من حِمْص إلى انطاكية كان عند قدوم المسلمين الشام، وكانت وقعة أجنادين يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ١٣ ويقال لليلتين خلتا من جمادى الاخرة ويقال لليلتين بقيتا منه».

ابن الأثير، كتب بدوره عن أجنادين:[2]

«ثمّ ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو ابن العاص، وهم مقيم بالعربات [مِن غور

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

فلسطين]، واجتمعت الروم بأجنادين، وعليهم «تذارق» أخو هرقل لأبويه - وقيل: كان على الروم «القبقلار» - وأجنادين بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين. وسار عمرو بن العاص حين سمع بالمسلمين فلقيهم، ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليهم. فبعث القبقلار [رجلاً] عربياً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم؛ فدخل فيهم وأقام يوماً وليلة، ثمّ عاد إليه فقال: ما وراءك؟ فقال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابنُ ملكهم قطعوه، ولو زنى رجم لإقامة الحق فيهم. فقال: «إنْ كنتَ صدقتني لبطنُ الأرض خيرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها. [ولوددتُ أنّ حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم عليّ].

والتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة فظهر المسلمون وهُزم المشركون وقتل القبقلار وتذارق، واستشهد رجال من المسلمين».

أما تفاصيل المعركة التي كان يقودها القبقلار ومعه جيش بلغ أكثر من ثلاثة أضعاف جيش المسلمين، فقد بدأها القائد البيزنطي بهجوم لميسرته على ميمنة المسلمين التي صمدت. ثمّ شنّت ميمنة جيش الروم هجوماً على ميسرة جيش المسلمين التي صمدت أيضاً.

بعد ذلك أمر القبقلار فرقة الرماة لديه بإطلاق النبال على المسلمين، فأعطى خالد حينذاك أوامره بالهجوم العام فأخذ الروم يفرون في كلّ اتجاه ويلجأون إلى الحصون أو الحاميات.

بلغ عدد قتلى الروم ثلاثة آلاف بينهم القبقلار وتذارق شقيق هرقل فيما خسرت قريش أربعة عشر شهيداً من أشرافها، وخسر المسلمون غيرهم لم تحدد المصادر عددهم.

وهكذا، سقط حاكم فلسطين الرومي قتيلاً وحررت معركة أجنادين فلسطين التي تراجع عنها الروم.

الدروس المستقاة من معارك بلاد الشام:

أ - تحركت الجيوش العربية بعد انتقال خالد من العراق لفتح مدن وحصون وقلاع بلاد الشام، فقام كلّ جيش بسلوك طريق منفصل عن الجيش الآخر لتعميم

الفتوحات. وكان أبرز القادة هو خالد بن الوليد الذي فتح على التوالي تدمر وحوارين وقرى في الغوطة وبصرى التي هاجمها من جهات عدّة فلم تستطع الصمود في وجهه. ثمّ تابع خالد تطهير منطقة حوران من الأعداء.

وهكذا أتمّ القادة المسلمون تحضيراتهم لخوض معركة فاصلة مع البيزنطيين. إنما، وقبل ذلك، وقعت معركة أجنادين التي كانت أول معركة تخوضها الجيوش العربية مجتمعة في بلاد الشام.

ب - حاول الامبراطور هرقل تنفيذ عملية مناورة بالخطوط الداخلية في صراعه مع المسلمين، فأعطى أوامره إلى القائد وردان بمهاجمة شرحبيل في بصرى من دون التعرّض لخالد بن الوليد. ومن ثمّ ينضم جيش وردان إلى جيش سرجيوس للقضاء على باقي الجيوش الإسلامية.

لكن خالداً بن الوليد تنبّه إلى خطّة الروم، فأمر بتجميع الوحدات العربية لخوض معركة فاصلة معهم. وبالفعل تجمّعت هذه الوحدات فكانت معركة أجنادين مثالاً تمهيدياً لمعركة اليرموك.

ج - لقد كان لمعركة أجنادين نتائج مهمّة أبرزها:

١ - هي أول معركة نظامية تخوضها الجيوش الإسلامية ضد جيش رومي نظامي بلغ عدده ثلاثة أضعاف عددها.

٢ - ومعركة أجنادين كانت أول معركة تقليدية قادها قائد عربي واحد هو خالد ابن الوليد، فيما المعارك أو الوقعات التي سبقتها كانت إما لفتح مدينة أو لقتال مجموعة من القبائل.

٣ - أظهرت هذه المعركة مرّة أخرى تصميم المسلمين على الانتصار. كما أظهرت روح تجرّد القادة المسلمين الذين خاضوها كمقاتلين عاديين، فيما كلّف خالد قيادة الميمنة والميسرة إلى سواهم.

٤ - لعبت النساء دوراً مهمّاً في المعركة إذ أنّ المقاتلين اصطحبوا نساءهم معهم ووضعوهنّ خلف خطوط القتال، الأمر الذي حمّسهم للانتصار أو الاستشهاد. وهذا ما سيتكرّر في معارك عربية أخرى.

٥ - أظهرت هذه المعركة ضعف ولاء المقاتل البيزنطي لدولته إذ أنه ثبت في البداية.

لكنه، وعند تعرّض صفوفه لهجوم إسلامي عام، تضعضعت الوحدات وهرب أفرادها.

ثالثاً – وقعة فِحل:[1]

حصلت وقعة فحل في الأردن، وسببها أن هرقل، لما ذهب إلى انطاكية، استنفر الروم والعرب والموالين لقتال المسلمين.

نقل البلاذري خبر وقعة فحل فكتب:[2]

«وكان سبب هذه الوقعة أنّ هرقل لمّا صار إلى انطاكية استنفر الروم وأهل الجزيرة وبعث عليهم رجلاً من خاصّته وثقاته في نفسه. فلقوا المسلمين بفحل من الأردُنّ فقاتلوهم أشدّ قتال وأبرحه، حتّى أظهرهم الله عليهم. وقتل بطريقهم وزهاء عشرة ألف معه وتفرّق الباقون في مدن الشام، ولحق بعضهم بهِرْقل. وتحصّن أهل فِحْل فحصرهم المسلمون حتّى سألوا الأمان على أداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، فأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأن لا تُهدَم حيطانهم. وتولّى عقد ذلك أبو عبيدة بن الجرّاح ويقال تولاّه شُرَحبيل بن حَسَنة».

وذكر الطبري يوم فحل فكتب:[3]

«فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق، قال: لمّا فرغ المسلمون من أجنادين ساروا إلى فحْل من أرض الأردن؛ وقد اجتمعت فيها رافضة الروم، والمسلمون على أمرائهم وخالد على مقدّمة الناس. فلمّا نزلت الروم بيْسان بثقوا أنهارها؛ وهي أرض سبخة، فكانت وحلاً، ونزلوا فِحْلاً – وبيسان بين فلسطين وبين الأردنّ – فلمّا غشيَها المسلمون ولم يعلموا بما صنعت الروم، وحِلت خيولهم، ولقوا فيها عَناءً، ثمّ سلّمهم الله. وسميت بَيْسان ذات الرَّدغَة لما لقي المسلمون فيها. ثمّ نهضوا إلى الروم وهم بفِحْل فاقتتلوا فهُزِمت الروم، ودخل المسلمون فحلاً، ولحقت رافضة الروم بدمشق؛ فكانت فحل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة».

(1) وقيل فَحل.

(2) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(3) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٥ – ٣٥٦.

ابن الأثير أيضاً نقل خبر وقعة فحل، فكتب:(١)

«سار أبو عبيدة إلى فِحل، واستخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان [في خيله]، وبعث خالداً على المقدّمة، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة، وكان على المجنبتين أبو عبيدة، وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجال عياض بن غنم. وكان أهل فحل قد قصدوا بيسان فهَمّ لها فنزل شرحبيل بالناس فحلاً وبينهم وبين الروم تلك المياه والأوحال، وكتبوا إلى عمر [بالخبر وهم يحدثون أنفسهم بالمقام، ولا يريدون أن يريموا فحلاً حتى يرجع جواب كتابهم من عند عمر، ولا يستطيعون الإقدام على عدوّهم في مكانهم لما دونهم من الأوحال]، وكانت العرب تسمي تلك الغزاة ذات الردغة وبيسان وفحل، وأقام الناس ينتظرون كتاب عمر، فاغترّهم الروم فخرجوا، وعليهم سقلار بن مخراق [ورجوا أن يكونوا على غِرّة]، فأتوهم والمسلمون حذِرون. وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلاّ على تعبية، فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم، فاقتتلوا أشد قتال. كان لهم ليلتهم ويومهم إلى الليل وأظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزم الروم وهم حيارى، وقد أصيب رئيسهم سقلار، والذي يليه [فيهم] نسطوس. وظفر المسلمون بهم [أحسن ظفر وأهنأه]، وركبوهم ولم تعرف الروم مأخذهم فانتهت بهم الهزيمة إلى الوحل فركبوه. ولحقهم المسلمون فأخذوهم، ولا يمنعون يدَ لامس، فوخزوهم بالرماح، فكانت الهزيمة بفحل والقتل بالرداغ. فأصيب الروم وهم ثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلاّ الشريد، وقد كان الله يصنع للمسلمين، وهم كارهون، كرهوا البثوق والوحل فكانت عوناً لهم على عدوّهم. وغنموا أموالهم فاقتسموها، وانصرف أبو عبيدة بخالد، ومن معه إلى حمص».

رابعاً – وقعة مرج الصفر

بعد معركة أجنادين رجعت الجيوش الإسلامية بسرعة إلى مراكزها الأساسية أمام مدينة دمشق فتمركزت كالآتي:

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٧٩ – ٢٨٠.

- خالد بن الوليد أمام الباب الشرقي في دير خالد.
- أبو عبيدة أمام باب الجابية.
- يزيد أمام باب توما.

وأخذوا يضيّقون على المدينة وحصروا أهلها داخلها من دون إمكان الخروج منها. في الوقت نفسه أغارت فرق إسلامية على نواحي الغوطة مرات عدة حيث غنمت غنائم كثيرة.

استنجد أهل دمشق بهرقل الذي كان يومذاك في انطاكية فجهّز الامبراطور جيشاً بيزنطياً ليس فيه أي عربي وعدده خمسة آلاف فارس بقيادة «درنجار».(١)

غادر الجيش الرومي أنطاكية، ومرّ في حمص حيث انضمّت إليه حاميتها وعددها ألفا فارس فأصبح عديد جيش الروم سبعة آلاف فارس. ثمّ سلك طريق البقاع عبر مدينة بعلبك حتى وصل إلى وادي الأردن الأعلى، فمرّ بالقنيطرة فسعسع وانحدر جنوباً، ثمّ حوّل سيره شمالاً نحو دمشق، وذلك بهدف عدم لفت أنظار الجيوش الإسلامية إليه.

لكنّ جواسيس المسلمين رصدت هذا الجيش وانتقالاته، فيما كانت قواتهم تحاصر دمشق، فقرّر خالد، بعد التشاور مع أُمراء الجيش، الانتقال إلى مرج الصفر،(٢) حيث كان يتمركز جيش الروم، لمهاجمته. وكان خالد قد ترك قسماً من الجيش الإسلامي حول دمشق لمتابعة حصارها.

وصل جيش المسلمين إلى مرج الصفر فيما كان الروم قد اصطفوا للمواجهة. وتواجه الجيشان وهما في العدد نفسه تقريباً.

نظّم خالد جيشه فوضع على الميمنة معاذاً ابن جبل، وعلى الميسرة هاشماً بن عتبة، وعلى الفرسان زيداً بن عمرو بن نفيل، وعلى القلب أبا عبيدة بن الجراح.

كتب البلاذري عن معركة مرج الصفر ما يأتي:(٣)

«قالوا: ثمّ اجتمعت الروم جمعاً عظيماً وأمدّهم هِرقل بمددٍ فلقيهم المسلمون بمرج

---

(١) درنجار: لقب عسكري لقائد خمسة آلاف من الجيش الرومي.

(٢) مرج الصفر سهل واسع جنوبي مدينة دمشق على مسافة أربعين كيلومتراً، وهو محاط بقرى عامرة.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٠.

الصُفّر، وهم متوجّهون إلى دمشق وذلك لهلال المحرَّم سنة ١٤ فاقتتلوا قتالاً شديداً حتّى جرت الدماء في الماء، وطحنت بها الطاحونة. وجُرح من المسلمين زُهاء أربعة آلاف، ثمّ ولّى الكفرة منهزمين مفلولين لا يلوون على شيء حتّى أتوا دِمشق، وبيت المقدّس. واستشهد يومئذ خالد بن العاصي بن أميّة، ويكنّى أبا سعيد وكان قد أعرس في الليلة التي كانت الوقعة في صبيحتها بأمّ حَكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي امرأة عِكرِمَة بن أبي جَهْل. فلمّا بلغها مُصابه انتزعت عمود الفسطاط فقاتلت به، فيقال إنّها قتلت يومئذ سبعة نفر وأنّ بها لَرَدْعُ الخَلُوق».

وفيما كان خالد ينظّم صفوفه هاجمت ميمنة الروم ميسرة المسلمين حيث جرى قتال ضار صمد خلاله فرسان المسلمين بمساعدة ميسرتهم رغم النبال المنهمرة عليهم. ثمّ حمل خالد بن الوليد مع رجاله على مقدّمة جيش الروم فجرى قتال عنيف قيل إنه كان من أعنف المعارك في تاريخ الفتوحات الإسلامية.

ومع مغيب الشمس، بدأت صفوف الروم تتضعضع أمام هجمات المسلمين الذين أخذوا يطاردونهم في ساحة المعركة التي انجلت عن انتصار الجيش الإسلامي وفرار فلول جيش الروم إلى مدينة دمشق. كما فرّ قسم من الروم إلى حمص وأنطاكية وبيت المقدس.[١]

بلغت خسائر الروم في مرج الصفر خمسمائة قتيل وخمسمائة أسير، كما استشهد قسم من المسلمين وجرح أربعة آلاف منهم.

خامساً – قتال «الواقوصة»

بعد انتهاء معركة مرج الصفر وتفرق الروم في مختلف مدن بلاد الشام، استطاعت قوّة منهم أن تتجمّع في الطريق بين مرج الصفر ودمشق في مكان يدعى «الواقوصة».

اختار خالد بن الوليد قوّة من خيرة فرسان المسلمين وسار بهم، ومعه أبو عبيدة ويزيد، إلى مكان تجمّع المنهزمين حيث جرى

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٠.

قتال انتهى بانتصار المسلمين الذين لم يعد أمامهم أي عائق أمام محاصرة دمشق وإسقاطها.

سادساً – الدروس المستقاة من وقعة مرج الصفر وقتال الواقوصة

أ – حاول جيش الروم عدم لفت أنظار المسلمين إليه خلال اقترابه من دمشق وذلك بهدف تحقيق عنصر المفاجأة. لكن جواسيس المسلمين كانوا قد رصدوا هذا الجيش فأعلموا بتحرّكاته القيادة الإسلامية التي أمرت برفع الحصار عن دمشق والانتقال إلى مرج الصفر تحضيراً للمعركة.

ب – عند رفع الحصار عن دمشق، أحسن خالد بن الوليد بترك قسم من الجيش الإسلامي حولها لمتابعة حصارها. وهكذا طبّق استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية، فقصد أولاً مرج الصفر لقتال جيش الروم المتقدّم نحو دمشق ومَنْعِه من بلوغها والانضمام إلى حاميتها، الأمر الذي كان سيخلق صعوبات أمام المسلمين في متابعة محاصرة المدينة، إذ أنهم سيحاربون عندها على جبهتين:

- جبهة أهل الشام المحاصرين.
- وجبهة جيش الروم بقيادة درنجار.

ج – تعرّض المسلمون لهجمات قوية من قبل الروم، لكن فرسانهم صمدوا رغم النبال المنهمرة عليهم قبل أن يشنّ خالد هجوماً عنيفاً على مقدّمة جيش عدوّه فيهزمه بعد قتال شرس جداً. فالحرب هي صراع أرادات ينتصر فيها من يكون أكثر صموداً وإصراراً على النجاح.

د – بعد انتصاره في وقعة مرج الصفر، طبّق خالد استراتيجية «استغلال النجاح»، إذ أنه لاحق فلول الروم المنهزمين. ولمّا علم أن هذه الفلول تجمّعت في «الواقوصة»، سار على رأس قوّة من المسلمين، وبسرعة فائقة، فهاجمهم وانتصر عليهم تمهيداً لمتابعة محاصرة دمشق.



الفصل الرابع
معركة اليرموك

اعتبر بعض المؤرّخين أن هرقل، وبعد الانتصارات العربية على قواته في شمال بلاد الشام، انسحب إلى القسطنطينية في خطّة استراتيجية ليحضّر جيشاً كبيراً وقوياً يعيد بواسطته احتلال بلاد الشام. لذلك جاءت انسحابات حاميات المدن الشمالية، التي تكلّمنا عنها في فصل سابق، بإيعاز من هرقل كي لا تشتبك مع القوات العربية الإسلامية، بل تبقى جاهزة للعودة بقوّةٍ إلى المنطقة.(١)

كتب الطبري عن ارتحال هرقل إلى القسطنطينية ما يأتي:(٢)

«ذكر سيف عن أبي الزّهراء القُشيريّ، عن رجل من بني قُشَير، قالوا: لمّا خرج هِرْقل من الرُّهاء واستتبع أهلها، قالوا: نحن ها هنا خير منّا معك، وأبوا أن يتبعوه، وتفرّقوا عنه وعن المسلمين. وكان أوّل مَن أنبح كلابها، وأنفر دجاجها زياد ابن حنظلة، وكان من الصحابة، وكان مع عمر بن مالك مسانِدَه، وكان حليفاً لبني عبد بن قُصيّ؛ وقبل ذلك ما قد خرج هرقل حتى شِمْشاط؛ فلمّا نزل القوم الرّهاء أدرب فنفذ نحو القسطنطينيّة. ولحقه رجلٌ من الرّوم كان أسيراً في أيدي المسلمين، فأفلت، فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أحدّثك كأنّك تنظر إليهم؛ فُرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمّتهم إلاّ بثمن، ولا يدخلون إلاّ

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٤٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٤٥ - ٤٤٦.

بسلام، يقفون على مَن حاربهم حتى يأتوا عليه. فقال: لئن كنت صدقتني ليرثُنّ ما تحت قدميّ هاتين.

وعن عبادة وخالد، أنّ هرقل كان كلّما حجّ بيت المقدس فخلّف سورية، وظعن في أرض الرّوم التفت فقال: عليك السّلام يا سورية تسليم مودّع لم يقضِ منك وطره، وهو عائد. فلمّا توجّه المسلمون نحو حمْص عَبَر الماء فنزل الرّهاء. فلم يزل بها حتى طلع أهل الكوفة وفتحت قِنّسرين وقتل ميناس، فخنَس عند ذلك إلى شمشاط؛ حتى إذا فصل منها نحو الرّوم علا على شرف، فالتفت ونظر نحو سورية، وقال: عليك السلام يا سورية، سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك روميّ أبداً إلاّ خائفاً، حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لا يولد! ما أحلى فِعله، وأمَرّ عاقبته على الرّوم!

وعن أبي الزّهراء وعمرو بن ميمون، قالا: لما فصل هرقل من شمشاط داخلاً الرّوم التفت إلى سورية، فقال: قد كنت سلّمت عليك تسليم المسافر، فأمّا اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق، ولا يعود إليك روميّ أبداً إلا خائفاً، حتى يولد المولود المشؤوم، وليته لم يولد! ومضى حتى نزل القسطنطينية. وأخذ أهل الحصون التي بين إسكندريّة وطرسوس معه؛ لئلا يسير المسلمون في عمارةٍ ما بين أنطاكية وبلاد الرّوم. وشعّث الحصون، فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً، وربّما كمن عندها الرّوم؛ فأصابوا غِرّة المتخلّفين، فاحتاط المسلمون لذلك».

أولاً – تحضيرات الروم للمعركة

كتب البلاذري عن تحضيرات الروم وقتال اليرموك ما يلي:[١]

«قالوا: جمع هِرقل جموعاً كثيرة من الروم، وأهل الشام، وأهل الجزيرة، وأرمِينية، تكون زهاء مائتي ألف، وولّى عليهم رجلاً من خاصّته. وبعث على مقدّمته جَبَلة بن الأيهم الغسّاني في مستعربة الشام، من لَخْم، وجُذام وغيرهم، وعزم على محاربة

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٨٤.

المسلمين، فإن ظهروا وإلاّ دخل بلاد الروم فأقام بالقسطنطينية. واجتمع المسلمون فرجعوا إليهم فاقتتلوا على اليرموك أشدّ قتال وأبرحه، واليرموك نهر، وكان المسلمون يومئذ أربعة وعشرين ألفاً. وتسلسلت الروم وأتباعهم يومئذ، لئلاّ يطمعوا أنفسهم في الهرب، فقتل الله منهم زهاء سبعين ألفاً. وهرب فلُّهم فلحقوا بفِلَسطين وأنطاكية وحَلَب والجزيرة وارْمينية. وقاتل يوم اليرموك نساءٌ من نساء المسلمين قتالاً شديداً، وجعلت هند بنت عُتْبة، أمُّ معاوية بن أبي سفيان تقول: عَضِّدوا الغُلْفَان بسيوفكم».

وهكذا أرسل هرقل إلى الولايات التابعة له بأن يجندوا كلّ فتى قادر على حمل السلاح، وذلك بهدف جمع أكبر جيش عرفته تلك الأيام. واستجاب الولاة للنداء فأخذوا يجنّدُون الرجال في أضخم عملية جمع مقاتلين.

وكان هرقل يريد أن يخوض مع المسلمين معركة فاصلة خوفاً من توسّعم من الشام نحو آسيا الصغرى وصولاً إلى عاصمة ملكه، القسطنطينية.

وأخذت القوى تتدفّق إلى أنطاكية بأعداد كبيرة، اختلف المؤرّخون في تقديرها حتى قيل إنها بلغت ٢٤٠ ألف مقاتل ما بين فارس وراجل من الروم والعرب الموالين لهم.

وصف ابن كثير جيش الروم فكتب:[١]

«إن المسلمين كانوا أربعة وعشرين ألفاً، وعليهم أبو عبيدة، والروم كانوا عشرين ومائة ألف عليهم ماهان وسقلاب يوم اليرموك. وذكر ابن اسحق أن سقلاب الخصي كان على الروم يومئذ في مائة ألف، وعلى المقدّمة جرجة، من ارمينيا، في اثني عشر ألفاً، ومن المستعربة اثني عشر ألفاً عليهم جبلة بن الأيهم».

البلاذري ذكر أن عدد الروم كان مائتي ألف.[٢]

وكان جيش الروم يضم مقاتلين من مختلف جنسيات الامبراطورية، من يونان وعرب وأرمن...

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦.

(٢) البلاذري، المرجع سابق، ص ١٨٤.

وكان الروم ينظّمون جيشهم عامة في فرق تضم كلّ منها عشرة كراديس. وخلال المعركة كانت الفرق تصطف في قلب الجيش على صفوف ثلاثة، يقف أمامها رماة السهام وعلى الجانبين الخيالة.(١)

تقدَم الجيوش الرومية نحو اليرموك:

خرج جيش الروم من انطاكية بقيادة ماهان فمرّ بحمص ومنها إلى سهل البقاع، إثر انسحاب المسلمين من هذه المناطق. وكان هذا الجيش في سيره يدمّر كلّ ما يجده أمامه، وذلك لإنزال العقاب بالسكان الذين تعاونوا مع العرب خلال فتحهم بلدانهم. وهذا ما زاد في كراهية سكان شمال بلاد الشام للبيزنطيين، لا سيما أن خلافات عقائدية كانت تفرقهم. ففيما كان سكان الشام يدينون بالطبيعة الواحدة، كان الروم يعتبرون أن للمسيح طبيعتين، الأولى إلهية والثانية إنسانية. وهذا ما دفع الروم إلى اضطهاد أهل سوريا والتنكيل بهم مما دفع بهؤلاء إلى التعاون مع العرب الذين اعتبروهم أقرب إلى عقيدتهم الدينية من أولئك.

ووصل الروم إلى اليرموك، التي كان قد سبقهم إليها العرب المسلمون، ونزلوا في الواقوصة وهي مكان على ضفّة اليرموك. وهكذا أصبح الوادي خندقاً لهم وحُصروا بينه وبين العرب، فقال عمرو بن العاص قوله الشهير: «حصرت الروم، وقلما جاء محصور بخير».(٢)

ثانياً - جيش المسلمين

لم يتفق المؤرّخون على عديد جيش المسلمين في معركة اليرموك. فمنهم من حدّد هذا العدد بـ٤٦٠٠٠ ألف مقاتل، ومنهم بـ٤٥ ألفاً ومنهم بـ٤٠ ألفاً، ومنهم من بـ٢٤ ألفاً، ومنهم من فصّله كالآتي:

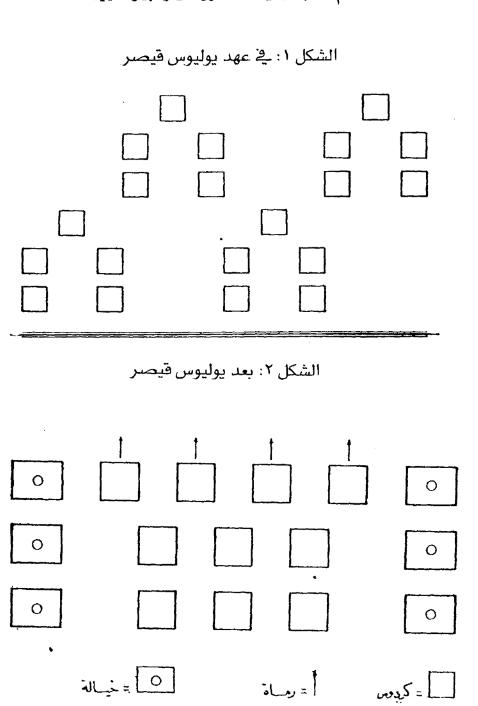
(١) انظر الرسم في الملحق.

(٢) اليرموك وادٍ في منطقة الشام على طريق الغور، يجتازه نهر بإسمه يصب في نهر الأردن. وقد اختلف المؤرّخون فيمن وصل أولاً إلى اليرموك فرأى الطبري وابن الأثير ان المسلمين بلغوها أولاً حين اجتمع قادتهم وقرروا اختيار اليرموك مكاناً للمعركة.

صورة

نظام الكراديس عند الرومان والبيزنطيين

الشكل ١: في عهد يوليوس قيصر



الشكل ٢: بعد يوليوس قيصر

كتب ابن كثير عن أعداد الجيوش:[١]

«فخرجت الروم في تعبئة لم يُرَ مثلها قبلها قط وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك. فخرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين كلّ كردوس ألف رجل عليهم أمير. وجعل أبا عبيدة في القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان. وأمّر على كلّ كردوس أميراً، وعلى الطلائع قباث بن أشيم، وعلى الأقباض عبدالله بن مسعود والقاضي يومئذٍ أبو الدرداء. وقاصّهم الذي يعظهم ويحثهم على القتال أبو سفيان بن حرب، وقارئهم الذي يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد المقداد بن الأسود».

كما يمكن تقدير العدد بـ٣٥ ألفاً موزعين كما يلي:

- ٧٠٠٠ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح.
- ٧٠٠٠ بقيادة يزيد بن أبي سفيان.
- ٧٠٠٠ بقيادة شرحبيل بن حسنة.
- ٣٠٠٠ بقيادة عمرو بن العاص.
- ٩٠٠٠ جيش خالد بن الوليد.
- ٢٠٠٠ بقيادة سعيد بن عامر أرسلهم الخليفة مدداً إلى اليرموك، بينهم ألف من الصحابة الذين شهدوا بدراً.

وكانت القوات الإسلامية قد انسحبت جنوباً، متخلية عن كلّ المدن والأراضي التي أخذتها عنوة أو صلحاً في شمال بلاد الشام، وذلك بعد أن سمع قادتها بتحرك القوات البيزنطية الضخمة باتجاههم. وراحت القوات الإسلامية تتجمّع في اليرموك تحضيراً للمعركة الفاصلة مع الروم.[٢]

وصف ابن كثير وصول جيش الروم وتحضيرات الجيش الإسلامي، فكتب:[٣]

«وذكر إسحاق بن يسار بإسناده أن أمراء الأرباع يومئذٍ كانوا أربعة، أبو عبيدة وعمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان. وخرج الناس على راياتهم

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٨.

(٢) قيل ان أبا عبيدة أعاد الجزية إلى أهل حمص بعد انسحاب الجيش الإسلامي منها لأنه لن يستطيع تأمين حمايتهم كما نصّ اتفاقه معهم.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٨ - ٩.

وعلى الميمنة معاذ بن جبل وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد وهو المشير في الحرب الذي يصدر الناس كلّهم عن رأيه. ولمّا أقبلت الروم في خيلائها وفخرها قد سدّت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثونهم على القتال؛ وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش، فساق بفرسه إلى أبي عبيدة فقال له إني مشير بأمر. فقال: قل ما أمرك الله أسمع لك وأطيع. فقال له خالد إن هؤلاء القوم لا بدّ لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين وأجعلها وراء الميمنة والميسرة حى إذا صدموهم كانوا لهم ردءاً فنأتيهم من ورائهم. فقال: له نعم ما رأيت. فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الميمنة وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، وأمر أبا عبيدة أن يتأخّر عن القلب إلى وراء الجيش كلّه لكي إذا رآه المنهزم استحى منه ورجع إلى القتال. فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد [العدوي] أحد العشرة رضي الله عنهم. وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها، فقال لهن من رأيتموه مولياً فاقتلنه، ثمّ رجع إلى موقفه رضي الله عنه».

وقد تمركز الجيش العربي على الضفة اليسرى لنهر اليرموك، وبدأ يستعدّ للقتال.[1]

التنظيم العسكري لجيش المسلمين:

قام المسلمون باقتباس أسلوب الروم في التنظيم لمعركة اليرموك، فرتّبوا جيشهم فرقاً[2] كلاً منها عشرة آلاف مقاتل، وهي على التقسيم التالي:[3]

(١) انظر خريطة وضع الجيوش قبل المعركة - خريطة رقم ١.

(٢) الفرقة من ١٠ إلى عشرين كردوس والكردوس ألف مقاتل.

(٣) أمين سعيد، حروب الإسلام والامبراطورية الرومية، القاهرة، ١٩٣٥، ص ١٠٨. انظر الخريطة رقم ١.

- فرقة القلب بقيادة أبو عبيدة بن الجراح، ومعه عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو وقوامها ثمانية عشر كردوساً.

- فرقة الميمنة بقيادة عمرو بن العاص، ومعه شرحبيل بن حسنة، وقوامها عشرة كراديس.

- فرقة الميسرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وقوامها عشرة كراديس.

- فرقة الطليعة من الخيالة بقيادة قباث بن أشيم.

- فرقة المؤخرة بقيادة سعيد بن زيد ومعه ٥٠٠ مقاتل من الظعن.

وعُيّن أبو الدرداء قاضياً للجيش وأبو سفيان بن حرب واعظاً وخطيباً وعبدالله بن مسعود ضابطاً للمؤونة. أما خالد، فكان في الوسط مع كبار الصحابة وأمامه راية «العقاب».

أما النساء فكان مركزهنّ خلف خطوط المسلمين، ومعهنّ عدد من السيوف لمنع المقاتلين من التراجع عن ساحة المعركة.[١]

أما قادة الكراديس فقد ذكرهم الطبري بالتفصيل إذ كتب:[٢]

«فخرجت الرّوم في تعبية لم يرَ الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تُعبّها العرب قبل ذلك؛ فخرج في ستّة وثلاثين كُردوساً إلى الأربعين، وقال: إنّ عدوّكم قد كثُر وطَغى، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس. فجعل القلب كراديَّ، وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شُرحبيل بن حَسَنة. وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان. وكان على كُردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمرو، وعلى كُردوس مذعور بن عديّ، وعياض بن غَنْم على كُردوس، وهاشم بن عتبة على كُردوس، وزياد بن حنظلة على كُردوس، وخالد في كُردوس؛ وعلى فالّة خالد بن سعيد دحْيَة بن خليفة على كُردوس، وامرؤ القيس على كُرْدوس، ويزيد بن يحنَّس على كُردوس، وأبو عبيدة

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٦.

علـى كُـردوس، وعِـكـرمـة عـلـى كُـردوس، وسهيل على كُردوس، وعبد الرحمن بن خالد على كُردوس - وهو يومئذ ابن ثماني عشرة سنة - وحبيب بن مسلمة على كُردوس، وصفوان بن أميّة على كُردوس، وسعيد بن خالد على كُردوس، وأبو الأعور ابن سفيان على كُردوس، وابن ذي الخِمار على كُردوس. وفي الميمنة عُمارة بن مخشيّ ابن خُوَيْلِد على كُردوس؛ وشُرَحبيل على كُردوس ومعه خالد بن سعيد، وعبدالله بن قيس على كُردوس؛ وعمرو بن عبسة على كُردوس، والسِّمط بن الأسود على كُردوس، وذو الـكَـلاع عـلـى كُـردوس، ومعـاويـة بـن حُدَيج على آخر؛ وجُنْدب بن عمرو بن حُمَمَة على كُردوس، وعمرو بن فلان على كردوس؛ ولَقيط بن عبد القيس بن بجرة حليف لبني ظَفَر من بني فزارة على كُردوس. وفي المَيْسرة يزيد بن أبي سفيان عـلـى كُـردوس، والـزُّبَـير عـلـى كُـردوس، وحَوشب ذو ظليم على كردوس، وقيس بن عمَرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن مازن ابن صعصعة من هوازن - حليف لبني النَّجّار - على كُردوس، وعِصْمة بن عبد الله - حليف لبني النجار من بني أسد - على كُردوس، وضِرار بن الأزور على كُردوس، ومسروق بن فلان على كُرْدوس، وعُتبة بن ربيعة بن بَهْز - حليف لبني عِصْمة - على كردوس، وجارية بن عبدالله الأشجعيّ - حليف لبني سِلمة - على كُرْدوس، وقباث على كردوس».

وبعد تمركز الجيش، تكلّم أبو عبيدة وعدد من القادة، فقال أبو عبيدة:[١]

«عباد الله، انصروا الله، ينصركم ويثبت أقدامكم. يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق[٢] والزموا الصمت إلاّ من ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى».

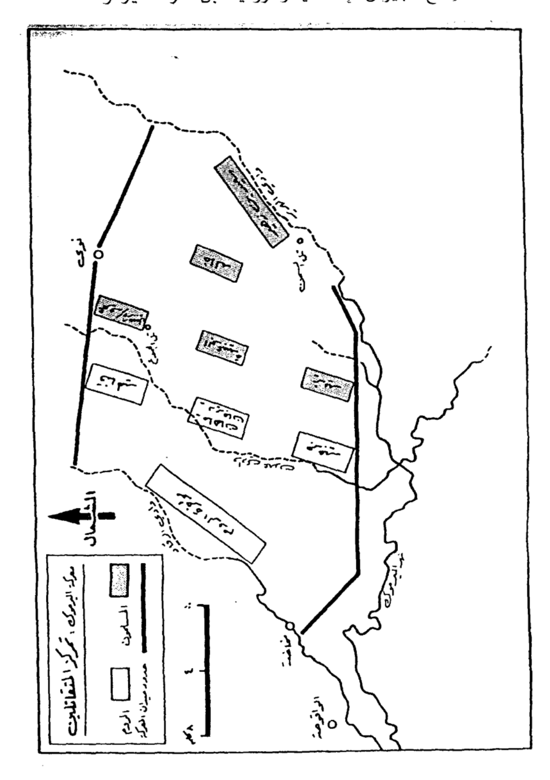
---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩.

(٢) الدرق: جمع الدرقة، وهي الدرع.

خارطة رقم ٤

وضع الجيوش الإسلامية والرومية قبل معركة اليرموك



قالوا: وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يذكرهم ويقول: يا أهل القرآن، ومتحفظي الكتاب وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تُنال وجنته لا تُدخل بالأماني، ولا يُؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد. فوالذي يرضى الصدق ويثيب[1] عليه ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحساناً. لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً وقصراً قصراً، فلا يهولنّكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشدّ تطايروا تطاير أولاد الحجل.

وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين وامداد المسلمين. وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده، شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم[2] في أنفسهم وبلادهم ونسائهم. والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلاّ بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة. ألا وإنها سنة لازمة وإن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول. فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون».

ثالثاً – المفاوضات قبل القتال

نقل ابن كثير أن مفاوضات سلام جرت قبل المعركة بين ماهان وخالد بن الوليد، فكتب:[3]

«وذكر الوليد بن مسلم أن ماهان طلب خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا

(١) يثيب: يعطي.

(٢) وترتموهم: أصبتموهم بالوتر أي الثأر.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠.

في مصلحة لهم، فقال ماهان: إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلموا إلى أن أعطي كلّ رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها. فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنّا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك. فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما كنا نحدث به عن العرب».

ونقل ابن كثير أيضاً رواية عن مفاوضات للسلام جرت بين أبي عبيدة وأمير الجيوش الرومية من دون أن تأتي بنتيجة. فأبو عبيدة أصرّ خلال المفاوضات على واحدة من ثلاث: إمّا الإسلام، وإما الجزية أو الحرب.

رابعاً - المعركة

بعد فشل المفاوضات لم يعد أمام الجيشين سوى القتال، وهذا ما حصل بالفعل. وكان على ميمنة الروم «ابن قناطر» قائد جند أرمينيا، وعلى ميسرتهم «الدرنجار» في جند من الروم، وعلى مقدّمتهم جبلة بن الأيهم في اثني عشر ألف مقاتل من قبائل لخم وجذام وبلقين وعاملة وقضاعة وغسان، وهم من العرب الموالين للروم.

وكما كان يحصل عادة قبل اندلاع القتال العام، جرت مبارزات فردية بين الجانبين، كما حمل الزبير بن العوّام مع بعض الفرسان الشجعان على صفوف الروم فاخترقها، وفق ابن كثير، «وجرح جرحين بين كتفيه».(١)

أما المعركة الرئيسية فجرت على مراحل أربع:(٢)

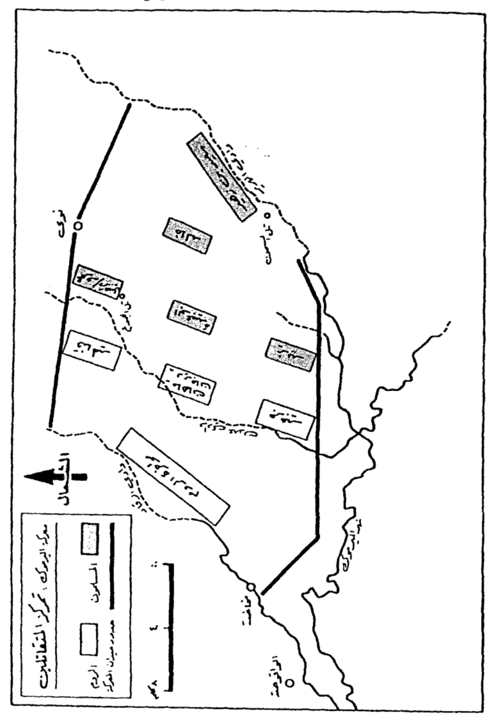
المرحلة الأولى: هجوم ميسرة الروم على ميمنة المسلمين

بدأت المعركة العامة بهجوم ميسرة الروم على ميمنة العرب التي صمدت بوجه هذا الهجوم الصاعق. إلاّ أنه، وتحت ثقل الهجوم تراجعت ميمنة العرب، فأصبح قلب الجيش الإسلامي مكشوفاً من جهة اليمين، إذ

(١) المرجع نفسه، ص ١١.
(٢) انظر خرائط المعركة.

خارطة رقم ٥

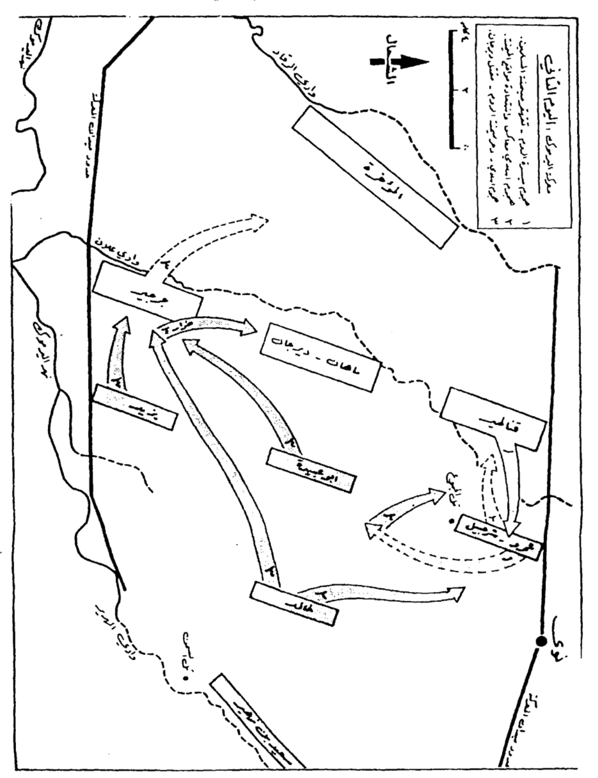
معركة اليرموك - تمركز الجيوش



المستند: العميد سويد، ياسين، الفن العسكري الإسلامي، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦.

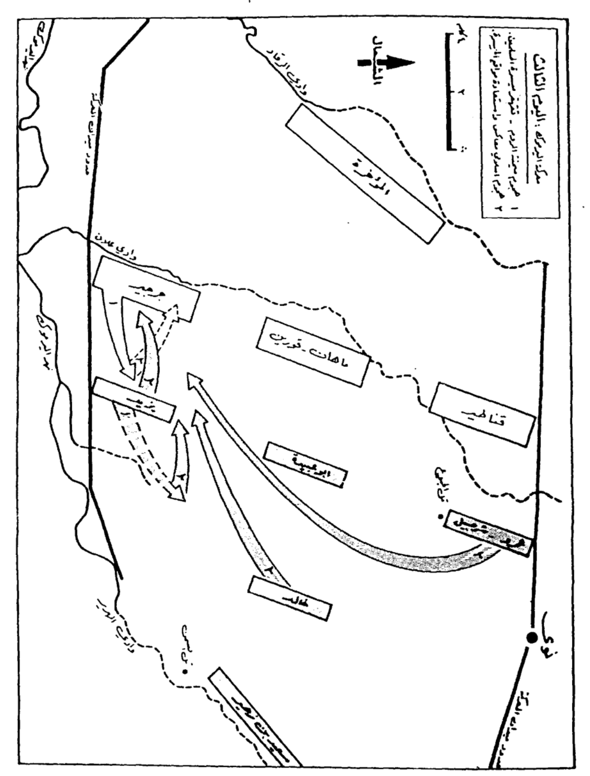
خارطة رقم ٦

معركة اليرموك - اليوم الثاني



خارطة رقم ٧

معركة اليرموك - اليوم الثالث



استطاع الروم إحداث ثغرة في صفوفهم. وهذا ما هدّد مؤخّرتهم بالتطويق، وكشف موقع قبيلة زبيد، مما دفع عمراً بن معد يكرب مع جماعة من قومه الزبيديين بلغ عددهم خمسماية مقاتل للصمود في وجه هذا الهجوم.

في الوقت نفسه أمر خالد القلب العربي بالقتال فدارت معركة حامية اختلط قلب جيش المسلمين بميمنتهم.

كتب الطبري عن هذه المرحلة:(١)

«كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن أبي عثمان الغسّاني، عن أبيه، قال: قال عِكرمة بن أبي جهل يومئذ: قاتلت رسول الله ﷺ في كلّ موطن، وأفِرّ منكم اليوم! ثمّ نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزْور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم؛ فقاتلوا قدّام فُسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً، وقُتِلوا إلاّ مَن برأ، ومنهم ضرار بن الأزور. قال: وأتِي خالد بعد ما أصبحوا بعِكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه، وجعل يمسح عن وجوههما، ويقطِّر في حلوقهما الماء، ويقول: كلاّ، زعم ابن الحَنتَمة أنّا لا نُستشهَد!».

وكانت النسوة المسلمات يرجمن الفارين من المقاتلين المسلمين بالحجارة. كتب الطبري أيضاً عن دور النسوة ما يلي:(٢)

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن أبي عُميس، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة - وكان شهد اليَرموك هو وعُبادة بن الصامت - أنّ النساء قاتلن يوم اليرموك في جَولة، فخرجت جُوَيْرية ابنة أبي سفيان في جَولة، وكانت مع زوجها، وأصيبت بعد قتال شديد، وأصيبت

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٨.

(٢) المرجع نفسه.

- روي ان هند بنت عتبة راحت تنشد:

نحنُ بَناتُ طارق ... نَمشِي عَلَى النَمارق

مَشْيَ القُطَا المُوافِق ... إن تُقبِلُوا نُعانِق

أو تُدبِرُوا نُفارِق ... فُراقَ غَيرِ وَامِق.

يومئذ عَين أبي سفيان، فأخرج السهم من عينه أبو حثمة».

وهكذا صمدت القبائل العربية من حمير وحضرموت وخولان وعادت إلى مراكزها بعد أن كانت تراجعت عنها. عندها أمر خالد بالهجوم العام من قبل القلب الذي هاجم القلب الرومي حتى وصل مقاتلوه إلى ميسرته وقتلوا قائدها «الدرن جار».[1]

المرحلة الثانية: هجوم ميمنة الروم على ميسرة المسلمين:

في المرحلة الثانية من المعركة شنّت ميمنة الروم بقيادة قائدها «ابن قناطر» هجوماً على ميسرة القوات العربية الإسلامية وفيها مقاتلو قبائل كنانة وقيس ولخم وجذام وخثعم وغسان وقضاعة وعاهلة. فتراجعت ميسرة الجيش الإسلامي تحت ضغط هذا الهجوم، فانكشف قلب هذا الجيش وزالت الميسرة من مكانها. لكن أصحاب الرايات والمحافظين ثبتوا في أماكنهم وقاتلوا قتالاً شديداً.

لاحق الروم المسلمين المنهزمين وتعقبوهم حتى معسكرهم.

لكن النساء المسلمات استقبلن المنهزمين بالحجارة والعصي ورحن يضربن بها وجوههم ورؤوسهم. كما استعملن عواميد الفساطيط ورحن يقلن:

- «أين تذهبون وتدعوننا للعلوج؟»[2]

عند ذلك حمل المسلمون حملة قوية وعادوا للقتال، وظهرت بطولات نادرة من قبل جند المسلمين.

ولعب أبو سفيان دوراً مهماً في هذه المرحلة.

كتب ابن كثير عن أبي سفيان ويزيد:[3]

«وثبت يومئذٍ يزيد بن أبي سفيان وقاتل قتالاً شديداً، وذلك أن أباه مرّ به فقال له: يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلاّ محفوفاً

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤.

العلوج - جمع علج: وهو الرجل الضخم من العجم.

(٣) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ١٤.

بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين ولّوا أمور المسلمين؟! أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة. فاتق الله يا بني ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال: أفعل إن شاء الله. فقاتل يومئذ قتالاً شديداً وكان من ناحية القلب رضي الله عنه.

وقال سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد. وأكمل خالد ليلته في خيمة تذارق أخي هرقل - وهو أمير الروم كلهم يومئذٍ - هرب فيمن هرب. وباتت الخيول تجول نحو خيمة خالد يقتلون من مرّ بهم من الروم حتى أصبحوا وقتل تذارق وكان له ثلاثون سرادقاً وثلاثون رواقاً من ديباج بما فيها من الفرش والحرير، فلما كان الصباح حازوا ما كان هنالك من الغنائم. وما فرحوا بما وجدوا بقدر حزنهم على الصدّيق حين أعلمهم خالد بذلك ولكن عوضهم الله بالفاروق رضي الله عنه».

أما ابن الأثير، فكتب عن دور النساء وعن دور أبي سفيان:(١)

«وقاتل النساء ذلك اليوم وأبلوا. قال عبدالله بن الزبير: كنتُ مع أبي باليرموك وأنا صبيٌّ لا أقاتل. فلما اقتتل الناسُ نظرتُ إلى ناسٍ على تلٍّ لا يقاتلون، فركبت وذهبت إليهم، وإذا أبو سفيان بن حرب، ومشيخة من قريش من مُهاجِرَة الفتح، فرأوني حَدَثاً فلم يتقوني. قال: فجعلوا والله إذا مالت المسلمون، وركبتهم الروم يقولون: «إيه بني الأصفر»، فإذا مالت الروم، وركبتهم المسلمون قال: «ويح بني الأصفر». فلما هزم الله الروم أخبرتُ أبي، فضحك فقال: قاتلهم الله أبو إلا ضغنا، لنحن خيرٌ لهم من الروم».

وهكذا، استطاع المسلمون ردّ الروم عن ميسرتهم وإعادة الوضع إلى ما كان عليه، فيما كانوا قد صدّوا هجوماً آخر للروم على كلّ الجبهات في الوقت نفسه.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٦١.

المرحلة الثالثة: تدخل فرقة الرماة عند الروم:

أمر قائد جيش الروم بتجميع فرقة الرماة في مكان واحد، وكان عددهم حوالى ٣٠ ألف رامٍ. وأصدر الأمر بإطلاق كلّ النبال في وقت واحد على جيش المسلمين، فانطلق ٣٠ ألف سهم سقطت عى المقاتلين المسلمين. وقيل أنها عَوّرَتْ في ذلك اليوم سبعماية عين، منها عينا أبي سفيان والمغيرة ابن شعبة.

بعد ذلك حملت ميسرة الروم من جديد على مَيمنة المسلمين فتلقاهم عمرو بن العاص وجنده الذين تراجعوا أمام قوّة الهجوم. إلا أن دور النساء المسلمات، هنا أيضاً، كان مهماً مع نداءاتهنّ: «ولستم بعولتنا إذا لم تمنعونا»، ونداء عمرو رجاله مستشهداً بقول الله تعالى:[١]

«إِنّ الله اشتَرى مِنَ المؤمِنين أَنفُسَهُم وأَموَالَهُم».[٢]

وحمل على رأسهم حملة قوية أزالت الروم عن مواضهم وأعادت اللحمة إلى جيش المسلمين.

المرحلة الرابعة: انهزام الروم ونهاية المعركة:

أدرك خالد بن الوليد ان استعمال فرقة رماة النبال من قبل الروم يدل على عجزهم عن متابعة الهجمات ووهن عناصرهم عن متابعة المعركة في الحدّة نفسها، بعد أن لمسوا صعوبة إزالة المسلمين عن مراكزهم، خاصة أن النساء وراءهم يمنعنهم عن الهرب.

كتب الطبري واصفاً هذه المرحلة:[٣]

«وركب خالدٌ ومعه جرجة والرّوم خلال المسلمين؛ فتنادى الناس، فثابوا، وتراجعت الرّوم إلى مواقفهم، فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسُّيوف، فضرب فيهم خالد وجَرجَة من لدن ارتفاع النهار إلى جُنوح الشمس للغروب. ثمّ أصيب جرجَة ولم

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤.

(٢) التوبة: من الآية ١١١.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٨.

يصلِّ صلاة سجد فيها إلاّ الرّكعتين اللّتين أسلم عليهما. وصلّى الناس الأولى والعصر إيماءً، وتضعضع الروم، ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم، وكان مقاتلهم واسع المطَّرد، ضيّق المهرب. فلمّا وجدت خيلُهم مذهَباً ذهبت وتركوا رَجْلهم في مصافِّهم؛ وخرجت خيلُهم تشتدّ بهم في الصحراء، وأخّر النّاس الصلاة حتى صلّوا بعد الفتح. ولما رأى المسلمون خيل الروم توجّهت للهرَب، أفرجوا لها، ولم يحرّجوها؛ فذهبت فتفرّقت في البلاد. وأقبل خالد والمسلمون على الرّجْل ففضّوهم؛ فكأنّما هُدِم بهم حائط؛ فاقتحمه عليهم فعَمَدوا إلى الواقوصة، حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم. فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من خَشَعتْ نفسُه، فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه؛ كلّما هوى اثنان كانت البقيّة أضعف، فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة ألف؛ ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق؛ سوى مَن قُتِل في المعركة من الخَيل والرّجل؛ فكان سهم الفارس يومئذ ألفا وخمسمائة. وتجلّل الفيقار وأشرافٌ من أشراف الرّوم برانسهم، ثمّ جلسوا وقالوا: لا نحبّ أن نرى يوم السَّوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور».

هكذا، دارت معركة قوية أبلى فيها المسلمون البلاء الحسن رغم صمود الروم. إلا أن هجوم فرسان المسلمين بقيادة خالد وقيس بن هبيرة على فرسان الروم أزالهم من موضعهم فراح فرسان الروم يهربون.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أهمية الحركة التي سمح بها المسلمون لفرسان الروم بالفرار، إذ كتب الطبري:[1]

«ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب، أفرجوا لها، لم يحرجوها، فذهبت وتفرّقت في البلاد. وأقبل خالد والمسلمون على الرَجْل[2] ففضوهم».

إذن، سمح المسلمون لفرسان الروم بالفرار، وفصلوا بذلك بين الفرسان والرجالة، الأمر الذي أتاح لفرسانهم بالضغط على المشاة الذين تراجعوا بسرعة فبدأت كفّة النصر في المعركة تميل إلى جانب المسلمين.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٨.

(٢) الرَجْل: أي الرجّالة أو المشاة.

لم يعترض الفرسان المسلمون سبيل فرسان الروم المنهزمين رغم أنهم كان بإمكانهم قتل قسم منهم. وهذا قرار استراتيجي تكتيكي اتخذه خالد بسرعة فقرّر مصير المعركة، لأن مشاة الروم أمست دون تغطية من الفرسان، أي أنهم أصبحوا معرضين لهجمات الفرسان المسلمين القوية.

تراجع الروم، لكن خالداً أسرع للإحاطة بهم وحصرهم بين قواته والواقوصة،[١] فكان من ينجو من السيف يسقط قتيلاً في الوادي وهو يحاول القفز والفرار، لا سيما أن ثمانين ألفاً من جند الروم مقيدين بالسلاسل. وقدّر عدد الهالكين في الواقوصة بمائة وعشرين ألف مقاتل.[٢]

كتب ابن الأثير عن الحركة الإفراجية التي نفّذها المسلمون، ما يأتي:[٣]

«ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجّهت للمهرب أفرجوا لها فتفرّقت، وقتل الرجالة، واقتحموا في خندقهم، فاقتحمه عليهم، وهوى فيها المقترنون وغيرهم، ثمانون ألفاً من المقترنين، وأربعون ألف مطلق سوى من قتل في المعركة».

أمّا الناجون وعددهم أربعون ألفاً، فقد هربوا إلى قرية فحل[٤] وإلى دمشق، حيث لاحقهم خالد بن الوليد وأعاد مصالحة أهلها. كتب ابن كثير عن ملاحقة خالد المنهزمين وصولاً إلى دمشق وحمص:[٥]

«وقد اتبع خالد من انهزم من الروم حتى وصل إلى دمشق فخرج إليه أهلها فقالوا: نحن على عهدنا وصلحنا؟ قال: نعم. ثمّ اتبعهم إلى ثنية العقاب فقتل منهم خلقاً كثيراً. ثمّ ساق وراءهم إلى حمص فخرج إليه أهلها فصالحهم كما صالح أهل دمشق. وبعث أبو عبيدة عياض بن غنم وراءهم أيضاً فساق حتى وصل ملطية فصالحه أهلها ورجع. فلمّا بلغ هرقل ذلك بعث إلى مقاتليها

(١) الواقوصة هي وادٍ عميق.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٦١.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٦١.
(٤) من قرى إربد في لواء عجلون شرق الأردن.
(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٥.

فحضروا بين يديه وأمر بملطية فحرقت. وانتهت الروم منهزمة إلى هرقل وهو بحمص والمسلمون في آثارهم يقتلون ويأسرون ويغنمون. فلما وصل الخبر إلى هرقل ارتحل من حمص وجعلها بينه وبين المسلمين وترّس بها. وقال هرقل: أما الشام فلا شام، وويل للروم من المولود المشؤوم».

أما عدد القتلى المسلمين، فقدّرهم الرواة بأربعة آلاف قتيل معظمهم من أهل اليمن.

خامساً – الدروس المستقاة

أ – بعد توجيه هرقل الفرق البيزنطية لمحاربة الجيوش الإسلامية في بلاد الشام، قرّر الخليفة أبو بكر تجميع جيوشه إلى بعضها البعض لخوض معركة فاصلة مع الروم خوفاً من أن يُستفرد كلّ جيش لوحده. وكان قد عزّز جيوشه في الشام بخالد بن الوليد، فيكون قد طبّق قاعدة تجميع القوى وتوحيد قيادتها.

ب – كان المسلمون مصممين على النصر في وقت كان الامبراطور البيزنطي يتحضّر لمغادرة سوريا إلى القسطنطينية في حال فشل جيوشه في المعركة الفاصلة مع العرب المسلمين. فمقابل تصميم القادة العرب على الانتصار، ظهر تردّد بيزنطي ليس في مصلحة الروم.

ج – قام هرقل بحملة تعبئة عامة في الولايات التابعة لامبراطوريته فحقق بذلك مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل»، إذ أن عديد جيشه كان يفوق بأضعاف عديد الجيش الإسلامي.

ورغم تقدير جيش الروم بين مائة ألف ومائتين وأربعين ألفاً، وتقدير جيش العرب المسلمين بين أربعة وعشرين وستة وأربعين ألفاً، فإننا نرى وجوب أخذ هذه الأرقام بالكثير من الحذر بسبب ميل المؤرّخين العرب الأوائل إلى الزيادة في تقدير عديد جيوش أعدائهم والخفض في تقدير أعداد وحداتهم.

د – اعتمد جيش الروم استراتيجية تدمير المدن والقرى التي تعاون أهلها مع المسلمين قبل انسحابهم من حمص إلى اليرموك. وهذا ما ألّب على الروم سكان مناطق بلاد الشام التي أصبح سكانها يميلون إلى مصالحة المسلمين بدلاً من

مقاومتهم، لا سيما أن خلافات دينية كانت تفرّق بينهم أصلاً.

هـ - أحسن المسلمون اختيار مكان المعركة إذ أنهم حصروا الروم بينهم وبين وادي الواقوصة الذي سقط مقاتلو الروم فيه بعد انتهاء المعركة فهلكوا. وحسن اختيار مكان المعركة يساهم في تحقيق «حرية العمل» أي مبدأ الحرب الثاني.

من جهة أخرى، انسحبت القوات الإسلامية من شمال بلاد الشام إلى الجنوب بهدف التجمّع وعدم السماح للجيش البيزنطي بمهاجمتها منفردة. وهذا ما أمّن لها قاعدة تجميع القوى وحشدها.

و - أحسن المسلمون أيضاً توزيع جيشهم قبل المعركة فحدّدوا المهمات لكلّ قائد بدقّة متناهية، وعززوا الميمنة والميسرة والقلب بقوات احتياطية، ووضعوا النساء العربيات وراء الجيش وكلفوهن بقتل من يرونه مدبراً.

وبالفعل، أعطى تدخّل النساء العربيات نتيجته في جميع مراحل القتال إذ شارك بعضهنّ في القتال، ومنع بعضهنّ أزواجهنّ من الانهزام. وهكذا أحسنت القيادة الاسلامية تطبيق مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل» إذ أنها نالت نتيجة عملانية كبيرة من استعمال وسائل غير قتالية بالطريقة المناسبة.

ز - قبيل المعركة، كان قائد جيش الروم يعتقد اعتقاداً راسخاً أن المسلمين خرجوا من بلادهم بسبب الجوع، لذلك عرض أن يعطي كلاً منهم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً ليعودوا إلى بلادهم.

لقد استهان القائد الرومي بعدوّه ولم يحسن تقدير قواته وحوافزه، فخرق بذلك قاعدة «إعرف عدوك». فالاستهانة بالعدو تؤدي غالباً إلى كوارث عسكرية. لذلك، تجهد الجيوش حالياً إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن إمكانات عدوها ودرجة تدريبه ونوع أسلحته ومدى التطوّر التكنولوجي والعملاني الذي بلغه بهدف تحضير الخطط لمحاربته. وهذا الدور منوط بالاستخبارات العسكرية التي توضع بتصرّفها إمكانات هائلة نظراً لأهمية المعلومات التي تأتي بها والتي تساهم في حسن قيادة القتال.

ح - عمد خالد بن الوليد إلى تنفيذ هجمات معاكسة إثر كلّ هجوم بيزنطي على

إحدى فرق جيشه. وهكذا انتقل من وضع الدفاع إلى وضع الهجوم فحقّق مكاسب عملانية ورفع من معنويات جنده.

ط - اعتمد الروم، منذ بداية القتال في اليرموك، استراتيجية الهجوم بسبب تفوّق جيشهم العددي الكبير على جيش المسلمين. وفي ذلك تدبير حسنٌ إذ أن الهجوم هو أفضل وسائل القتال التي تؤمن النصر. لكنّ عوامل عديدة ساهمت في كبح هجماتهم، نذكر منها:

- ردّة فعل خالد بن الوليد السريعة بتحريكه الوحدات الإسلامية الجاهزة لتخفيف الضغط على الجبهة المعرّضة للهجوم.
- دور النسوة العربيات.
- صمود المقاتلين المسلمين من مختلف القبائل وحماسهم للقتال وشدّة حوافزهم للنصر.
- حسن اختيار مكان المعركة من قبل خالد ابن الوليد الذي حصر الروم بين جيشه وبين وادي الواقوصة.
- عدم حماس مقاتلي الجيش الرومي بسبب عدم ولائهم المطلق للامبراطور البيزنطي والخلافات الدينية العقائدية التي كانت تفرّق شعوب الشرق الأدنى عن القسطنطينية. يضاف إلى ذلك انهيار معنويات مقاتلي هذا الجيش الذين رُبُطوا إلى بعضهم بالسلاسل خوفاً من فرارهم من المعركة. فالمقاتل الذي يخوض القتال مرغماً ودون اقتناع وحماس لا يمكنه الانتصار.
- قيمة القادة المسلمين العملانية وخاصة خالد بن الوليد، وقيمة المقاتل العربي المتمرّس على فنون الكرّ والفرّ والملاحقة والتراجع منذ زمن الجاهلية، مروراً بعصر النبيّ ﷺ وصولاً إلى الخلافة الراشدية.
- إنجازات فرسان المسلمين في المعركة وحسن بلائهم خلالها.
- الحركة الإفراجية التي أمر بها خالد والتي سمحت لفرسان الروم المطوقين بالفرار من المعركة، الأمر الذي أدى إلى فصلهم عن مشاة الروم الذين سهلت عملية سحقهم من قبل خيالة المسلمين ومشاتهم.

كان بإمكان خيالة المسلمين إنزال خسائر فادحة بفرسان الروم، ومنعهم من الفرار

دون ملاحقة تنفيذاً لقاعدة «إستغلال النصر». لكن في ذلك مخاطرة كبرى بسبب كثرة عدد هؤلاء وإمكانية دفعهم إلى الاستبسال في القتال، الأمر الذي يهدّد بتغيير مجرى المعركة لمصلحة الروم. فالهدف الأساسي هو أجدر بالتحقيق من الهدف الثانوي، والانتصار في معركة اليرموك أهم من تدمير بعض فرق من الخيالة البيزنطيّة.

- محاصرة مشاة الروم بين جيش المسلمين والواقوصة ومهاجمتهم بعنف من قبل خيالة خالد، ما أوقع بهم وحسم القتال معهم. وبالفعل، فإن من نجا من سيوف المسلمين سقط في الواقوصة التي قدّر ابن الأثير عدد الهالكين فيها بمائة وعشرين ألف مقاتل، رغم ما في هذا العدد من مبالغة.

سادساً - الخلاصة

وفي الخلاصة أن معركة اليرموك كانت من المعارك الكبرى في التاريخ التي غيّرت مجراه. ويمكن تشبيهها بمعارك كان واسترليتز وستالنغراد لأن نتائجها كانت أكبر من حجمها.

فقد أنهت معركة اليرموك وجود الامبراطورية البيزنطية في الشرق الأدنى، رغم أن معارك لاحقة وقعت بينها وبين الدول الإسلامية التي تعاقبت على مدّ سيطرتها إليه، وأقامت مكانها الدولة الإسلامية العربية.

ويحار المراقب في تفسير ظاهرة غلبة الشجاعة والحماس على العدد الكبير. لكن هذه الحيرة تتبدّد إذا اطّلع على الشهادتين اللتين أورد نصّهما ابن كثير، إذ كتب:(١)

«وروى أحمد بن مروان المالكي في المجالسة: ثنا أبو إسماعيل الترمذي ثنا أبو معاوية عن عمرو عن أبي إسحاق قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء. فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى: قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كلّ موطن. قال: فما بالكم

---

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ١٦.

تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم. ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهي عما يرضي الله ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني.

وقال الوليد بن مسلم: أخبرني من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه قالا: لما نزل المسلمون بناحية الأردن، تحدّثنا بيننا أنّ دمشق ستحاصر فذهبنا نتسوّق منها قبل ذلك. فبينا نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقها فجئناه فقال: أنتما من العرب؟ قلنا: نعم! قال: وعلى النصرانية؟ قلنا: نعم. فقال: ليذهب أحدكما فليتجسّس لنا عن هؤلاء القوم ورأيهم، وليثبت الآخر على متاع صاحبه. ففعل ذلك أحدنا فلبث ملياً ثمّ جاءه فقال: جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقاً. أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها، ويثقفون[1] القنا.[2] لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر. قال: فالتفت إلى أصحابه وقال: أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به».

كذلك أبرزت معركة اليرموك عبقرية القائد العربي المسلم خالد بن الوليد الذي سيعزل من القيادة بعدها.[3] لقد توّج خالد حياته العسكرية بهذه المعركة، إذ أنّ قيادته لها كانت أفضل قيادة يمكن أن يتصوّرها المراقب، من بُعد النظر وسرعة القرار وتقدير الموقف على حقيقته، إلى استنباط استراتيجيات جديدة تتلاءم مع وضع المعركة، واستخدام النساء في القتال، إلى الحركة الإفراجية التي سمحت بفرار فرسان الروم، إلى القوّة والعزم والحماس التي كان ينشرها خالد بين مقاتليه وجنده. كلّ ذلك أهّله لأن يكون من كبار رجال السيف في العالم يومذاك.

(١) يثقفون: يصلحون.
(٢) القنا: الرماح.
(٣) أنظر الملحق: من هو خالد بن الوليد.

ملحق رقم ١
سيرة
خالد بن الوليد

نقل عن خالد بن الوليد قوله قبيل وفاته:

«لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسمي موضع شبر إلاّ وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثمّ ها أنذا أموت حتفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

ولد خالد ابن الوليد السنة ٥٩٧م في قبيلة قريش بمكّة، وكان والده الوليد بن المغيرة المخزومي سيداً من سادة قريش. شبّ خالد وهو يعبد الأوثان التي قدر الله لها أن تنهار تحت وقع سيفه. واعتمدت قريش على سيفه مرات عدّة حتى ضدّ النبيّ ﷺ الذي حاربه خالد في غزوة الأحزاب.

شارك إلى جانب أبي سفيان في وقعة أحد يوم قاد الفرسان وقاد ميمنة جيش قريش خلالها. كما ظلّ خالد طوال ثماني سنين خصماً عنيداً للنبيّ ﷺ، واعتنق الإسلام في السنة الثامنة للهجرة.

طريقة إسلام خالد نقلها ابن كثير الذي كتب، (على لسان خالد نفسه):[١]

«قال الواقدي: حدّثني يحيى بن المغيرة بن عبد الرّحمن ابن الحارث بن هشام قال: سمعت أبي يحدّث عن خالد بن الوليد قال: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام، وحضرني رشدي، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلّها على محمّد ﷺ، فليس في موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمّداً سيظهر.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

فلمّا خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه وتعرّضت له فصلى بأصحابه الظهر أمامنا. فهممنا أن نغير عليهم، ثمّ لم يعزم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطلع على ما في أنفسنا من الهمّ به، فصلّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع. فاعتزلنا، وعدل عن سير خيلنا، وأخذ ذات اليمين. فلمّا صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح، قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين أذهب إلى النجاشي! فقد اتبع محمّد وأصحابه عنده آمنون، فأخرج إلى هرقل، فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم في عجم، فأقيم في داري بمن بقي. فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله مكة في عمرة القضية، فتغيّبت ولم أشهد دخوله. وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبيّ ﷺ في عمرة القضيّة، فطلبني فلم يجدني، فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: «**أَيْنَ خَالِد؟**» فقلت: يأتي الله به، فقال: «**مِثلهُ جَهِلَ الإِسْلامَ؟ وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَحده مَعَ المُسْلِمِين كَانَ خَيْراً لَهُ، ولَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ**». فاستدرك يا أخي ما قد فاتك [من] مواطن صالحة. قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرّني سؤال رسول الله ﷺ عني، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيّقة مجدبة. فخرجت في بلاد خضراء واسعة، فقلت: إن هذه لرؤيا. فلما أن قدمت المدينة قلت: لأذكرنها لأبي بكر، فقال: مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك. قال: فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه، إنما نحن كأضراس، وقد ظهر محمّد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمّد واتبعناه فإن شرف محمّد لنا شرف؟ فأبى أشدّ الإباء، فقال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً. فافترقنا وقلت هذا رجل قتل أخوه وأبوه

ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية فقال لي مثل ما قـ صفوان بن أمية. قلت: فاكتم عليّ، قال: لا أذكره. فخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان ابن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق، فلو ذكرت له ما أرجو، ثمّ ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره. ثمّ قلت: وما عليّ وأنا راحل من ساعتي، فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صبّ فيه ذنوب من ماء لخرج. وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي، فأسرع الإجابة، وقلت له: إني غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفج مناخة. قال: فاتعدت أنا وهو بيأجج إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه. قال فأدلجنا سحراً، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدّة فنجد عمرو بن العاص بها، قال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك، فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمّد ﷺ، قال: وذاك الذي أقدمني. فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرّة ركابنا، فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فسرّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثمّ عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي: فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك، فسرّ بقدومك وهو ينتظركم. فأسرعنا المشي فاطلعت عليه فما زال يتبسّم إليّ حتى وقفت عليه، فسلّمت عليه بالنبوّة، فردّ عليّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله. فقال: «**تَعَالَ**» ثمّ قال رسول الله ﷺ: «**الحَمْدُ لِلَّه الَّذي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لا يُسْلِمَكَ إلاَّ إلى خَيْر**». قلت: يا رسول الله إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق، فادعُ الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسْلامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَه**». قلت: يا رسول الله على ذلك، قال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِخَالدِ بْنَ الوَليدِ كُلَّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدِّ عَنْ سَبِيلِ الله**». قال: خالد، وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ، قال: وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، قال: والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه».

شارك خالد بعد إسلامه في غزوة الحديبية مع النبيّ ﷺ حيث تصدّى لابن عمّه المشرك عكرمة بن أبي جهل، الذي خرج بالفرسان لمنع دخول المسلمين إلى مكّة لزيارتها، فهزمه. ولقب يومذاك بـ«سيف الله» بعد أن قال: «أنا سيف الله وسيف رسوله».

لكن تاريخ خالد تسوده الهنات وخاصة في بدايته. فعلى سبيل المثال، وبعد فتح مكّة المكرّمة، أرسله النبيّ ﷺ في سرية إلى بني جذيمة لاستطلاع وضعهم وليس للقتال. فوصل إلى ماء لهم تدعى «الغميضاء». أخذ بنو جذيمة السلاح، لكن خالداً قال لهم: «ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا»، فوضعوا السلاح. لكنه كتّفهم ثمّ قتل منهم عدداً من الناس منهم خالد بن جذيمة، قيل إنه قتله لأنه سبق وقتل في الجاهلية عماً له اسمه الفاكه بن مغيرة. وقيل لأنه دعاهم للإسلام فجعلوا يقولون: «صبأنا، صبأنا». ولما وصل الخبر إلى النبيّ ﷺ، رفع يديه إلى السماء ثمّ قال: «اللّهم اني أبرأ إليك من ما صنع خالد».[١]

وخالد من أشهر القادة الذين شاركوا في حروب الردة إذ قاتل طليحة الأسدي وقبائل بني عامر وطيء وعبس وذبيان ومالك بن نويرة ومسيلمة الكذاب وغيرهم. ونجح في جميع معاركه بحيث عاد الإسلام إلى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية.

وهو أبرز القادة الذين هاجموا على جبهة العراق وفتح الحيرة. ثمّ تحوّل من العراق إلى الشام، حيث اجتاز الصحراء بأعجوبة أصبحت على كلّ شفة ولسان، وقاد المعارك على جبهة الشام وصولاً إلى معركة اليرموك حيث تجلّت عبقريته بأبهى حللها.

أخيراً، ورغم إنجازات خالد بن الوليد الفائقة، عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن القيادة العامة في الشام وعين مكانه أبا عبيدة ابن الجراح. لكن خالداً بقي، رغم ذلك، المحرّك الأول والقائد الفاعل في الجيش العربي المسلم. وقيل إن خالد قال، عندما بلغه أنه عزل، وعند سؤاله عن سبب متابعته القتال: «أنا لا أحارب من أجل عمر، وإنما أحارب من أجل ربّ عمر».

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٨.

نقل عباس محمود العقاد رواية منطقية عن تفسير عمر بن الخطاب سبب عزله لخالد، إذ نقل أن الخليفة أرسل إلى الأمصار يأمر الولاة بان يعلنوا باسمه «أني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن الناس فُتنوا به فخشيت ان يوكلوا إليه ويبتلوا، وألا يكونوا بعرض فتنة».(١)

وبقي خالد، بعد عزله، أربع سنين في حمص، إلى أن توفي في العام ٢١ للهجرة (وقيل ٢٢) وله من العمر ستون سنة حين قال: «إذا أنا متّ، فانظروا في سلاحي وفرسي، فاجعلوه عدّة في سبيل الله».

وهكذا قضى هذا القائد الفذّ، خالد بن الوليد.

وروى ابن كثير رواية عن الخليفة عمر بن الخطاب بعد وفاة خالد، فكتب:(٢)

«دخل هشام بن البختري في ناس من بني مخزوم على عمر بن الخطاب فقال له: يا هشام أنشدني شعرك في خالد. فأنشده فقال: قصّرت في الثناء على أبي سليمان رحمه الله، إنه كان ليحب أن يذل الشرك وأهله، وإن كان الشامت به لمتعرّضاً لمقت الله. ثمّ قال عمر: قاتل الله أخا بني تميم ما أشعره. [الطويل].

وَقُلْ لِلَّذي يَبْقَى خِلافَ الَّذِي مَضَى
تَهَيَّأْ لأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قدي(٣)
فَمَا عَيْشُ مَنْ قَدْ عَاشَ بَعْدِي بنافعي
وَلاَ مَوْتُ مَنْ قَدْ مَاتَ يَوْماً بِمُخْلِدِي

ثمّ قال عمر: رحم الله أبا سليمان ما عند الله خير له مما كان فيه. ولقد مات سعيداً وعاش حميداً ولكن رأيت الدهر ليس بقاتل».

---

(١) العقاد، عباس محمود، عبقرية خالد، دار الهلال، القاهرة، ص ١٥٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١١٤.

(٣) المقصود هنا: قد يكون.



الفصل الخامس

فتح دمشق والمدن الأخرى

بعد أن هزم المسلمون النجدات التي أرسلها هرقل لرفع الحصار عن دمشق في فحل ومرج الصفر، أصبحت الطريق أمامهم سالكة لمتابعة حصارها حتى إسقاطها.

وبالفعل، أسرعت الجيوش الإسلامية بالعودة، بعد معركة مرج الصفر، إلى محاصرة دمشق، فاحتلّ كلّ قائد موقعه السابق، ثمّ راحوا يهاجمون مناطق الغوطة والقرى القريبة من دمشق ويعودون منها بالغنائم.

وكان جهاز الحصار الإسلامي لدمشق كما يأتي:

- أبو عبيدة أمام باب الجابية.
- يزيد أمام باب توما.
- خالد على الباب الشرقي.

فيما كان شرحبيل في الأردن وعمرو بن العاص في فلسطين.

أما هرقل، فأرسل إلى كلّ الولايات في امبراطوريته يدعو إلى التجنّد والالتحاق بالجيش ومجابهة الخطر الإسلامي. لذلك، استطاع أن يجنّد جيشاً كبيراً غالبية مقاتليه من الفرسان. لكنّ هذا الجيش هزم في مرج الصفر كما سبق الحديث.

قام هرقل بتجنيد جيش رومي آخر بلغ عدد جنوده عشرين ألفاً، وجّهه جنوباً فبلغ مدينة بعلبك. وعندما علم العرب بقدومه قرّ الرأي على أن يتوجّه خالد بن الوليد لمواجهة هذا الجيش. لكن خالداً، وبوصوله إلى قرب بعلبك، علم أن الجيش المعني اتجه إلى بيسان في فلسطين

للانضمام إلى جيوش الروم التي أخذت تحتشد هناك.

أغار خالد على بعلبك وغنم غنائم كثيرة قبل أن يقفل عائداً إلى دمشق، ثمّ انتقل وأبو عبيدة إلى فحل في الأردن حيث جرت معركة فحل التي سبق الحديث عنها.

أولاً – فتح دمشق

عاد الأمراء المسلمون لتشديد الحصار على دمشق. كتب البلاذري عن الحصار الجديد:[1]

«قالوا: لمّا فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمَرج أقاموا خمس عشرة ليلة، ثمّ رجعوا إلى مدينة دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرّم سنة ١٤ فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوة. وتحصّن أهل المدينة وأغلقوا بابها، فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي في زهاء خمسة ألف ضمّهم إليه أبو عبيدة. وقوم يقولون إنّ خالداً كان أميراً، وإنّما أتاه عزلُه وهم محاصرون دمشق، سمّي الدّير الّذي نزل عنده خالد دَيْرُ خالد. ونزل عمرو بن العاصي على باب توما، ونزل شرحبيل على باب الفَراديس، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير، إلى الباب الّذي يعرف بكَيسان. وجعل أبو الدّرْداء عُوَيمِر بن عامر الخَزْرَجي على مسلحة ببَرزةَ. وكان الأسقف الّذي أقام لخالد النُزل في بدأته ربما وقف على السور، فدعى له خالداً فإذا أتى سلّم عليه وحادثه، فقال له: ذات يوم يا أبا سليمان إنّ أمركم مقبل، ولي عليك عِدة، فصالحني عن هذه المدينة...».

الطبري أيضاً، نقل رواية حصار دمشق، فكتب:[2]

«ثمّ ساروا إلى دمشق وخالد على مقدّمة الناس؛ وقد اجتمعت الروم إلى رجل منهم يقال له باهان بدمشق – وقد كان عمر عزلَ خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس – فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثمّ هزم الله الرّوم، وأصاب منهم المسلمون.

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٦٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٦.

ودخلت الروم دمشق؛ فغلّقوا أبوابها وجَثم المسلمون عليها فرابطوها حتى فُتحت دمشق، وأعطوا الجزية. وقد قدم الكتاب على أبي عبيدة بإمارته وعزل خالد، فاستحيا أبو عبيدة أن يُقرئ خالداً الكتاب حتى فتحت دمشق؛ وجرى الصُّلح على يديْ خالد؛ وكتب الكتاب باسمه. فلما صالحت دمشق لحق باهان - صاحب الروم الّذي قاتل المسلمين - بهِرْقل. وكان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب، وأظهر أبو عبيدة إمارته وعزل خالد. وقد كان المسلمون، التقوْا هم والرّوم ببلد يقال له عين فِحْل بين فلسطين والأردنّ، فاقتتلوا به قتالاً شديداً، ثمّ لحقت الروم بدمشق».

اما ابن كثير فنقل رواية دخول خالد دمشق عنوة، فيما دخلها باقي الأمراء صلحاً:(١)

«... وأهل دمشق ممتنعون منهم غاية الامتناع، ويرسلون إلى ملكهم هرقل - وهو مقيم بحمص - يطلبون منه المدد فلا يمكن وصول المدد إليهم من ذي الكلاع، الذي قد أرصده أبو عبيدة رضي الله عنه بين دمشق وبين حمص - عن دمشق ليلة - فلما أيقن أهل دمشق أنه لا يصل إليهم مدد أبلسوا(٢) وفشلوا وضعفوا، وقوي المسلمون واشتدّ حصارهم. وجاء فصل الشتاء واشتدّ البرد وعسر الحال وعسر القتال، فقَدَّر الله الكبير المتعال، ذو العزّة والجلال، أن ولد لبطريق دمشق مولود في تلك الليالي فصنع لهم طعاماً وسقاهم بعده شراباً. وباتوا عنده في وليمته قد أكلوا وشربوا وتعبوا فناموا عن مواقفهم، واشتغلوا عن أماكنهم. وفطن لذلك أمير الحرب خالد بن الوليد فإنه كان لا ينام ولا يترك أحد ينام، بل مرصداً(٣) لهم ليلاً ونهاراً، وله عيون وقصّاد يرفعون إليه أحوال المقاتلة صباحاً ومساءً. فلما رأى حمدة تلك الليلة، وأنه لا يقاتل على السور أحد كان قد أعدّ سلالم من حبال فجاء هو وأصحابه من الصناديد الأبطال، مثل القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي، وقد

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٠ - ٢١.
(٢) أبلس: يئس.
(٣) مرصدا: أي مترصّداً أو مراقباً.

أحضر جيشه عند الباب وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا فوق السور فارقوا إلينا. ثمّ نهد هو وأصحابه فقطعوا الخندق سباحة بقُرَبٍ[1] في أعناقهم، فنصبوا تلك السلالم وأثبتوا أعاليها بالشرفات، وأكّدوا أسافلها خارج الخندق، وصعدوا فيها. فلما استووا على السور رفعوا أصواتهم بالتكبير، وجاء المسلمون فصعدوا في تلك السلالم وانحدر خالد وأصحابه الشجعان من السور إلى البوابين فقتلوهم، وقطع خالد وأصحابه أغاليق الباب بالسيوف وفتحوا الباب عنوة، فدخل الجيش الخالدي من الباب الشرقي. ولمّا سمع أهل البلد التكبير ثاروا وذهب كلّ فريق إلى أماكنهم من السور، لا يدرون ما الخبر، فجعل كلّما قدم أحد من أصحاب الباب الشرقي قتله أصحاب خالد، ودخل خالد البلدة عنوة فقتل من وجده. وذهب أهل كلّ باب فسألوا من أميرهم الذي عند الباب من خارج الصلح - وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة[2] فيأبون عليهم - فلما دعوهم إلى ذلك أجابوهم. ولم يعلم بقية الصحابة ما صنع خالد. ودخل المسلمون من كلّ جانب وباب فوجدوا خالداً وهو يقتل من وجده، فقالوا له: إنا قد أمناهم، فقال: إني فتحتها عنوة. والتقت الأمراء في وسط البلد عند كنيسة المقسلاط بالقرب من درب الريحان اليوم. وهكذا ذكره سيف بن عمر وغيره وهو المشهور أن خالداً فتح الباب قسراً.

وقال آخرون: بل الذي فتحها عنوة أبو عبيدة وقيل يزيد بن أبي سفيان، وخالد صالح أهل البلد فعكسوا المشهور المعروف والله أعلم.

وقد اختلف الصحابة فقال قائلون هي صلح - يعني على ما صالحهم الأمير في نفس الأمر وهو أبو عبيدة -. وقال آخرون: بل هي عنوة، لأنّ خالداً افتتحها بالسيف أولاً كما ذكرنا، فلما أحسوا بذلك ذهبوا إلى بقية الأمراء ومعهم أبو عبيدة فصالحوهم. فاتفقوا فيما بينهم على أن جعلوا نصفها صلحاً ونصفها عنوة، فملك أهلها نصف ما كان بأيديهم وأقرّوا عليه، واستقرّت يد

(١) القربة: جعبة النبال.

(٢) المشاطرة: المناظرة.

الصحابة على النصف. ويقوي هذا ما ذكره سيف بن عمر من أن الصحابة كانوا يطلبون إليهم أن يصالحوهم على المشاطرة فيأبون، فلما أحسوا باليأس أنابوا[1] إلى ما كانت الصحابة دعوهم إليه فبادروا إلى إجابتهم. ولم تعلم الصحابة بما كان من خالد إليهم والله أعلم.

ولهذا أخذ الصحابة نصف الكنيسة العظمى التي كانت بدمشق وتعرف «بكنيسة يوحنا» فاتخذوا الجانب الشرقي منها مسجداً، وأبقوا لهم نصفها الغربي كنيسة. وقد أبقوا لهم مع ذلك أربع عشرة كنيسة أخرى مع نصف الكنيسة المعروفة «بيوحنا»، وهي جامع دمشق اليوم. وقد كتب لهم بذلك خالد بن الوليد كتاباً، وكتب فيه شهادته أبو عبيدة وعمرو بن العاص ويزيد وشرحبيل: إحداها كنيسة المقسلاط التي اجتمع عندها أمراء الصحابة، وكانت مبنية على ظهر السوق الكبير. وهذه القناطر المشاهدة في سوق الصابونيين من بقية القناطر التي كانت تحتها، ثمّ بادت فيما بعد وأخذت حجارتها في العمارات. الثانية: كنيسة كانت في رأس درب القرشيين وكانت صغيرة، قال الحافظ ابن عساكر: وبعضها باق إلى اليوم وقد تشعّثت. الثالثة: كانت بدار البطيخ العتيقة».

وتساءل ابن كثير: هل فتحت دمشق صلحاً أو عنوة؟ فكتب:[2]

«واختلف العلماء في دمشق هل فتحت صلحاً أو عنوة؟ فأكثر العلماء على أنه استقرّ أمرها على الصلح، لأنهم شكّوا في المتقدّم على الآخر أفتحت عنوة؛ ثمّ عدل الروم إلى المصالحة، أو فُتحت صلحاً، أو اتفق الاستيلاء من الجانب الآخر قسراً؟ فلما شكوا في ذلك جعلوها صلحاً احتياطاً.

وقيل بل جعل نصفها صلحاً ونصفها عنوة، وهذا القول قد يظهر من صنع الصحابة في الكنيسة العظمى التي كانت أكبر معابدهم حين أخذوا نصفها وتركوا لهم نصفها والله إعلم.

ثمّ قيل: إن أبا عبيدة هو الذي كتب لهم كتاب الصلح، وهذا هو الأنسب والأشهر،

(١) أنابوا: عادوا وقرّروا.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٣.

فإن خالداً كان قد عزل عن الإمرة، وقيل بل الذي كتب لهم كتاب الصلح، خالد بن الوليد، ولكن أقرّه على ذلك أبو عبيدة فالله أعلم».

أمّا البلاذري فقد أورد كتاب خالد إلى أهل دمشق الذي جاء فيه:(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يُهدَم، ولا يسكن شيءٌ من دورهم، لهم بذلك عهد الله، وذمّة رسوله ﷺ، والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلاّ بخير إذا أعطوا الجزية».

كما أورد البلاذري روايتين عن الفتح، الأولى يقول فيها إن خالداً وأبا عبيدة دخلا عنوة، الأول من الباب الشرقي والثاني من باب الجابية. كتب البلاذري:(٢)

«ثمّ أنّ بعض أصحاب الأسقف أتى خالداً في ليلة من الليالي فأعلمه أنّها ليلة عيد لأهل المدينة، وأنّهم في شغل، وأنّ الباب الشرقي قد رُدم بالحجارة وتُرِك. وأشار عليه أن يلتمس سُلّماً فأتاه قوم من أهل الدير الّذي عند عسكره بسُلّمَين فرقي جماعة من المسلمين عليهما إلى أعلى السور ونزلوا إلى الباب وليس عليه إلاّ رجل أو رجلان فتعاونوا عليه وفتحوه، وذلك عند طلوع الشمس. وقد كان أبو عبيدة بن الجرّاح عانى فتح باب الجابية وأصعد جماعة من المسلمين على حائطه، فانصبّ مقاتلة الروم إلى ناحيته فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً. ثمّ أنّهم ولّوا مدبرين وفتح أبو عبيدة، والمسلمون معه باب الجابية عنوة، ودخلوا منه فالتقى أبو عبيدة وخالد بن الوليد بالمقسلاط، وهو موضع النحّاسين بدمشق، وهو البَريص».

ثمّ يعود البلاذري ليذكر رواية ثانية عن دخول خالد المدينة صلحاً فيما دخلها أبو عبيدة بالقوّة. كتب البلاذري:(٣)

«وقد روى أنّ الروم أخرجوا ميّتاً لهم من باب الجابية ليلاً وقد أحاط بجنازته خلق من

(١) البلاذري، مرجع سابق، صفحة ١٦٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

شجعانهم وكماتهم، وانصبّ سائرهم إلى الباب فوقفوا عليه ليمنعوا المسلمين من فتحه ودخوله إلى رجوع أصحابهم من دفن الميت. وطمعوا في غفلة المسلمين عنهم، وأنّ المسلمين نذروا بهم فقاتلوهم على الباب أشدّ قتال وأبرحه حتّى فتحوه في وقت طلوع الشمس. فلمّا رأى الأسقف أنّ أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة، بدر إلى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي فدخل والأسقف معه ناشراً كتابه الذي كتبه له فقال بعض المسلمين: والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه. فقال أبو عبيدة: أنّه يجيز على المسلمين أدناهم؛ وأجاز صلحه وأمضاه ولم يلتفت إلى ما فتح عنوة فصارت دمشق صلحاً كلّها. وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر وأنفذه، وفتحت أبواب المدينة فالتقى القوم جميعاً».

أمّا الطبري، فأورد رواية مماثلة لرواية ابن كثير عن أن خالداً دخل دمشق عنوة. وفيما كان جنده يقاتلون أهل دمشق، قام هؤلاء بفتح الأبواب الأخرى وأدخلوا الجيوش الأخرى، وقالوا لهم: «ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب».[1]

وهذا يعني أن جند خالد كانوا قد دخلوا المدينة عنوة وأعملوا السيف في رقاب أهلها.

وحدّد الواقدي فتح مدينة دمشق في رجب السنة ١٤ للهجرة.[2]

وكانت دمشق في تلك الأيام محصّنة بسور ضخم، وتمتد أمام جبل قاسيون الواقع في شمالها. وكان طول سورها ١٦٠٠ متر وعرضه نحو ألف متر، وقد حفر حول السور خندق عميق واسع مليء بالمياه. عدد بواباتها تسع، بني عند كلّ منها برج عالٍ ينتهي بغرفة مربعة لإقامة جنود الحرس. وبصورة موجزة كانت دمشق جيدة التحصين. إنما، ورغم أن العرب لم يكونوا يملكون معدّات لحصار المدن، فإنها فُتحت ودخلها المسلمون وعُيّن يزيد بن أبي سفيان أميراً على المدينة.

في هذه الأثناء أرسل هرقل جيشاً نحو دمشق، لكن المسلمين هزموه أيضاً وردوه إلى مدينة حمص. كما ركّز المسلمون جيشاً

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥٨.

(٢) سنة ٦٣٥م.

لهم بقيادة ذي الكلاع الحميري بين حمص ودمشق، على مسافة ليلة واحدة من دمشق، في حين نزل جيش آخر بقيادة أبي الدرداء في سفح جبل قاسيون. مهمّة هذين الجيشين منع وصول نجدات الروم إلى دمشق.

كتب ابن خلدون مفسّراً فتح دمشق مرتين:[1]

«واقتحموها عنوة وذلك في ذي القعدة ولحقت فواقعت الروم بدمشق، وعليها ماهان من البطارقة، فحاصرهم المسلمون حتى فتحوا دمشق وأظهر أبو عبيدة إمارته وعزل خالد. وقال سببه أن أبا بكر كان يُسخِطُ خالد بن سعيد والوليد بن عُقبَة من أجل فرارهما كما مرّ، فلمّا وليَ عمر (رض) أباح لهما دخول المدينة، ثمّ بعثهما مع الناس إلى الشام. ولمّا فرغ أمر اليرموك وساروا إلى فِحْل، وبلغ عمر خبر اليرموك؛ فكتب بعزل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص حتى يصير الحرب إلى فلسطين، فتولاها عمر. وزن خالداً قدم على عمر بعد العزل وذلك بعد فتح دمشق، وأنهم ساروا إلى فحل فاقتحموها. ثمّ ساروا إلى دمشق، وعليها نِسطاس ابن نَسطورُس فحاصروها سبعين ليلة، وقيل ستة أشهر من نواحيها الأربع، خالد وأبو عبيدة ويزيد وعمرو كلّ واحد على ناحية، وقد جعلوا بينهم وبين هرقل مدينة حمص، ومن دونها ذو الكلاع في جيش من المسلمين.

وبعث هرقل المدد إلى دمشق، وكان فيهم ذو الكلاع، فَسُقِط في أيديهم وقدموا على دخول دمشق، وطمع المسلمون فيهم. واستغفلهم خالد في بعض الليالي فتسوّر سورهم من ناحيته وقتل الوليد وفتح الباب واقتحم البلد وكبّر وكبّروا فقتلوا جميع من لقوه. وفزع أهل النواحي إلى الأمراء الذين يلونهم فنادوا لهم بالصلح والدخول، فدخلوا من نواحيهم صلحاً، فأجريت ناحية خالد على الصلح مثلهم».

(١) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٩٩، جزء ٤، ص ٩٠٤ - ٩٠٥.

أ - الدروس المستقاة من معركة دمشق:

١ - استعمل المسلمون خلال محاصرة دمشق استراتيجية إنهاك سكان المدينة وجوارها، من خلال القيام بهجمات متتالية لمناطق الغوطة والقرى القريبة من دمشق. وهذه الاستراتيجية تهدف إلى:

* ممارسة ضغط عسكري متواصل على المدينة لدفع سكانها إلى الاستسلام.
* منع وصول النجدات إلى المحاصَرين.
* تأمين التموين للجيوش العربية الإسلامية التي تحاصر المدينة من المناطق المجاورة لها.

٢ - بغية فك الحصار العربي عن دمشق، طبّق هرقل استراتيجية التعبئة العامة وحشد القوى وإرسالها نحو المدينة.

ففي حال تطويق وحدة عسكرية، تجهد القيادة العامة التي تتبع لها هذه الوحدة في العمل على فك الطوق عنها، مطبقة إحدى استراتيجيتين:

* إما بقيام الوحدة المطوقة بشن هجوم عنيف ومركّز على أحد جوانب الطوق فتخرقه وتخرج من الطوق.
* أو بتكليف وحدة صديقة من خارج الطوق بشنّ هجوم على عدوّها الذي يُجبر عندها بالقتال على جبهتين.

اختار هرقل الاستراتيجية الثانية فجنّد جيشاً من عشرين ألف مقاتل ووجّهه جنوباً نحو منطقة الاشتباكات مع المسلمين. لكن هذا الجيش، وبدلاً من العمل على فكّ الحصار عن دمشق، اتجه إلى فلسطين تمهيداً لعمليات لاحقة، فسقطت المدينة بأيدي الجيوش العربية.

٣ - تمكّن خالد ومفرزة من مقاتليه من فتح دمشق بتسلّق السلالم التي أثبتت أعاليها إلى السور، وذلك بعد أن قطعوا الخندق الذي يحيط بالمدينة سباحة. ثمّ دخل خالد وأصحابه المدينة قفزاً من السور وفتحوا الباب الشرقي عنوة، فدخل باقي المقاتلين منه. واعتبر دخول خالد إلى دمشق عنوة، فيما دخلها باقي الأمراء صلحاً ودون حصول تنسيق بينهم، فالتبس الأمر على المسلمين وعلى مؤرّخيهم.

وهكذا أدى غياب التنسيق والارتباط بين جيوش المسلمين إلى مصالحة أهل المدينة على نصف ما يملكون.

٤ - إثر الدخول إلى دمشق، أحسن القادة المسلمون إدارة دفة القتال إذ أنهم تمكّنوا من هزيمة جيش للروم كان قد أرسل لتعزيز المدينة، وركزوا جيشين حولها مهمتهما منع وصول نجدات الروم إليها.

٥ - مما لا شك فيه أن المعركة الرئيسية في بلاد الشام بعد اليرموك كانت حول أسوار دمشق التي كانت تعتبر أهم مدينة في تلك البلاد وتتمركز فيها القوة الرئيسية للامبراطورية البيزنطية. لذلك صمّم العرب على فتحها مهما كلّف الأمر، فيما صمّم الروم على حمايتها بمختلف الوسائل، فأرسلوا الجيش تلو الجيش لتعزيز حاميتها، إنما دون نتيجة. فقد فتحت أخيراً رغم اضطرار المسلمين إلى تخفيف حصارها مرات عدّة لمجابهة جيوش التعزيز الذي كان يرسلها الامبراطور البيزنطي هرقل.

٦ - تابع المسلمون حصار دمشق رغم المحاولات الرومية لفك الحصار عنها، فقاموا بمجابهة الجيوش التي أرسلت إليها الواحد تلو الأخر دون رفع الحصار. وهكذا طبقوا قواعد التصميم والحدّة والاستمرارية في ملاحقة هدفهم، الأمر الذي ساهم في انتصارهم.

ب - تمركز الجيوش العربية بعد فتح دمشق:

بعد سقوط دمشق سيطر المسلمون على أهم مناطق بلاد الشام وتمركزت قواتهم على الشكل الآتي:

- عيّن أبو عبيدة يزيداً بن أبي سفيان والياً على دمشق.

- تمركز جيش شرحبيل في الجنوب الشرقي للبلاد الشامية، أي في الأردن.

- تمركز جيشا عمرو بن العاص في الجنوب الغربي للبلاد الشامية.

- أما جيشا خالد وأبي عبيدة فإنهما اتجها شمالاً بعد انقضاء فصل الشتاء لفتح مدن شمال بلاد الشام.

وقام يزيد بإرسال الفرق إلى المناطق المجاورة لدمشق لفتحها، فتمّ فتح تدمر التي وُقّع كتاب صلح مع أهلها ووُلّي عليها دحية بن خليفة الكلبي، وحوران التي تولاها أبو الزهراء العَشيري.

ثانياً – فتح بعلبك

ومع انتهاء فصل الشتاء قرّر أبو عبيدة فتح المدن الشمالية لبلاد الشام وملاحقة هرقل إلى عقر داره، وذلك بعد أن كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قد عيّنه قائداً عاماً للجيوش الإسلامية في تلك البلاد. كما رأى أن يرسل فرسان خالد بن الوليد في الطليعة، على أن يتبعهم بنفسه مع بقية الجيش. أما الهدف الرئيسي لتحرّكه فكان مدينة حمص.(١)

سلك خالد، في انتقاله إلى حمص، طريق البقاع الشمالي. وباقترابه من مدينة بعلبك تصدّت له قوّة بيزنطية، فتوقّف في ضاحية بعلبك الجنوبية، قبل أن يشتبك مع فرقة الروم، التي خرجت من المدينة، في معركة قصيرة انسحبت بعدها الفرقة إلى بعلبك وتحصّنت فيها. وبعد أن وصل أبو عبيدة مع باقي الجيش الاسلامي، حاصرت القوات العربية مدينة بعلبك بهدف فتحها وعدم إبقاء قوّة تهدّد طريقها إلى حمص.(٢)

خلال الحصار قام أهل بعلبك، وغالبيتهم من العرب النصارى مع عدد قليل من الانباط والروم، بالضغط على الحامية الرومية لفتح المدينة صلحاً وعدم تعريض سكانها للقتل وأملاكهم للمصادرة.(٣)

وبالفعل، طلب قائد الحامية الصلح فقبل أبو عبيدة وكتب كتاب صلح لأهل بعلبك أصبح، في ما بعد، نموذجاً لصلح المدن الأخرى في بلاد الشام، وجاء فيه:(٤)

«– «بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها، وعلى أرجائهم. وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ولا ينزلوا قرية عامرة. فإذا مضى شهر ربيع

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٣٩.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٤٤.

(٤) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٧٨.

وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاؤوا، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا. ولتجّارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها. وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله وكفى بالله شهيداً».

وهكذا نرى أن البندين الأساسيين في كتاب الصلح هما:

١ - إمهال السكان مدة شهرين لتقرير خروجهم من المدينة أو بقائهم فيها.

٢ - فرض الجزية على الذين يختارون الإقامة فيها ودخولهم في ذمّة المسلمين.

ثالثاً - فتح حمص وشمال بلاد الشام

كانت حمص مدينة تنتشر مساكنها على بقعة كبيرة من الأرض الخصبة، وهي غنية بالمياه والزرع، وأهلها عرب. وهي أهم مدينة بالنسبة للروم، إذ أن فيها أكبر حامياتها في شمال بلاد الشام. لذلك، اعتبر أبو عبيدة أن فتح حمص هو أفضلية بالنسبة لمشاريعه العسكرية، فانطلق من بعلبك نحوها على رأس جيش من المسلمين، فمر بايعات ومقنة حيث تأكّد من عدم وجود قوات معادية فيهما.

وبوصوله إلى مشارف حمص، نزل وجيشه في بلدة اسمها «جوسية» تبعد حوالى ثلاثين كيلومتراً عنها. وكانت فرقة من فرسان الروم قد خرجت لملاقاة المسلمين في الطريق، فتصدّى لها خالد ابن الوليد وفرسانه حيث جرت معركة شرسة انتهت بهزيمة فرقة الروم وفرار فرسانها ومطاردتهم من قبل فرسان خالد.

عند هذا الحد دخل الروم مدينة حمص وأقفلوا أسوارها فحاصرها المسلمون وعلى رأسهم أبو عبيدة وخالد.[١]

وأحاط المسلمون بمدينة حمص من كلّ جهاتها ولا سيما من الشمال منعاً لقدوم نجدات إليها من بلاد الروم. وبقي الحصار ثمانية عشر يوماً كان خلالها

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥١.

المسلمون يغيرون على أرباض المدينة ويغنمون غنائم كثيرة.

أخيراً قرّر أهل حمص طلب الصلح فأجابهم أبو عبيدة بالإيجاب وكتب لهم كتاب صلح شبيهاً بكتاب صلح بعلبك. أما الجزية عن حمص فبلغت مائة وسبعين ألف دينار سنوياً. وأضاف أبو عبيدة بنداً على كتاب الصلح يقضي باستضافة أهلها للمسلمين يوماً وليلة يطعمونهم خلالهما. وكانت الفرقة الرومية المكلّفة بحماية حمص قد خرجت خلسة منها وانسحبت باتجاه الشمال.

وبانتهاء معركة حمص سار أبو عبيدة إلى معرّة النعمان فافتتحها صلحاً. أما اللاذقية فقد نقل ابن الأثير رواية عن فتحها عنوة من قبل أبي عبيدة، جاء فيها:(١)

«وسار أبو عبيدة إلى معرّة، وهي معرة النعمان نُسِبت بعد إلى النعمان بن بشير الأنصاري فأذعنوا له بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص. ثمّ أتى اللاذقية، فقاتله أهلها، وكان لها باب عظيم يفتحه جَمعٌ من الناس، فعسكر المسلمون على بعدٍ منها. ثمّ أمر فحفر حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكباً. ثمّ أظهروا أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما جنّهم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر. وأصبح أهل اللاذقية، وهم يرون أنّ المسلمين قد انصرفوا عنهم، فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد. فلم يروهم إلاّ والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة، ومُلِكَت عنوة، وهرب قوم من النصارى، ثمّ طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدونه، قلوا أو كثروا. وتُركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجداً جامعاً بناه عبادة بن صامت، ثمّ وسع فيه بعد.

ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جَبَلة من الروم عنها».

وبهدف تأمين دمشق، بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد في ألف فارس لتعزيز حاميتها، فجاءها ونزل، كما في السابق، في الباب الشرقي بالقرب من دير خالد.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٤٠.

أما البلاذري، فقد نقل أن أبا عبيدة فتح أيضاً حماه وفامية وشيزر[1] والزراعة والقسطل، فكتب:[2]

«وحدّثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد ابن عبد العزيز قال: لمّا افتتح أبو عبيدة بن الجرّاح دمشق، استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وعمرو بن العاصي على فلسطين، وشرحبيل على الأردن، وأتى حمص فصالح أهلها على نحو صلح بعلبك. ثمّ خلف بحمص عُبادة ابن الصّامت الأنصاري، ومضى نحو حماة فتلقّاه أهلها مذعنين، فصالحهم على الجزية في رؤوسهم والخراج في أرضهم. فمضى نحو شيزَر فخرجوا يكفرون ومعهم المقلّسون ورضوا بمثل ما رضي به أهل حَماة وبلغت خيله الزرّاعة والقَسطَل. ومرّ أبو عبيدة بمعرّة حِمص وهي التي تنسب إلى النعمان بن بشير، فخرجوا يقلّسون بين يديه. ثمّ أتى فامية، ففعل أهلها مثل ذلك، وأذعنوا بالجزية والخراج».

وعن فتح اللاذقية وقنسرين وانسحاب هرقل إلى القسطنطينية وفتح طرطوس وحلب وانطاكية والمعارك التي جرت بين المسلمين والروم، كتب ابن خلدون:[3]

«لمّا انهزم الروم بفِحْل سار أبو عبيدة وخالد إلى حمص واجتمعوا بذي الكلاع في طريقهم. وبعث هرقل توذر البطريق لقائهم فنزلوا جميعاً بمرج الروم. وكان توذر بإزاء خالد وشمر بطريق آخر بإزاء أبي عبيدة وأمسوا مستترين. ثمّ أصبح فلم يجدوا توذر وسار إلى دمشق واتبعه خالد، واستقبله يزيد من دمشق فقاتله، وجاءه خالد من خلفه فلم يفلت منهم إلاّ القليل وغنموا ما معهم. وقاتل جيش أبو عبيدة بعد مسير خالد، فانهزم الروم وقتلوا وأتبعهم أبو عبيدة إلى حمص ومعه خالد. فبلغ ذلك هرقل، فبعث بطريق حمص إليها، وسار هو في الرهاء، فحاصر أبو عبيدة حمص حتى طلبوا الأمان فصالحهم.

وكان هرقل يعدّهم في حصارهم المدد، وأمر أهل الجزيرة بإمدادهم فساروا لذلك.

(١) شيزر: قرية قرب معرّة النعمان.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤٤ - ٩٤٧.

وبعث سعد بن أبي وقّاص العساكر من العراق فحاصروا هيت وقرقيسيا فرجع أهل الجزيرة إلى بلادهم. ويئس أهل حمص من المدد فصالحوا على صلح أهل دمشق. وأنزل أبو عبيدة فيها السِمْطَ بن الأسود في بني معاوية من كِنْدَة، والأشعث بن قيس في السكون، والمقداد في بَلِيّ وغيرهم. وولّى عليهم أبا عبيدة بن الصامت وصار إلى حماة فصالحوه على الجزية عن رؤوسهم، والخراج عن أرضهم. ثمّ سار نحو شيزر فصالحوا كذلك، ثمّ إلى المعرّة كذلك. ويقال معرّة النعمان وهو النعمان بن بشير الأنصاري.

ثمّ سار إلى اللاذقية ففتحها عنوة ثمّ سلمية. ثمّ أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين فاعترضه ميناس عظيم الروم بعد هرقل فهزمهم خالد وأثخن فيهم ونازل قنسرين حتى افتتحها عنوة وخرّبها. وأدرب إلى هرقل من ناحيته، وأدرب عياض بن غَنْم كذلك، وأدرب عمر بن مالك من الكوفة إلى قرقيسيا، وأدرب عبدالله بن المعتمر من الموصل. فارتحل هرقل إلى القُسْطَنْطينيّة من أمدها، وأخذ أهل الحصون بين الاسكندرية[1] وطرطوس وشعبها أن ينتفع المسلمون بعمارتها. ولمّا بلغ عمر صنيع خالد قال أمّر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال. وقد كان عزل خالداً والمثنى بن حارثة خشية أن يداخلهما كبر من تعظيم فوكلوا إليه. ثمّ رجع عن رأيه في المثنى عند قيامه بعد أبي عبيد، وفي خالد بعد قنسرين، فرجع خالد إلى إمارته.

ولمّا فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب، وبلغه أن أهل قِنّسرين غدروا فبعث إليهم السمط الكِنْدِيّ فحاصرهم وفتح وغنم. ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو موضع قريب منها، يجمع أصنافاً من العرب فصالحوا على الجزية، ثمّ أسلموا بعد ذلك.

ثمّ أتى حلب وكان على مقدّمته عياض ابن غنم الفِهريّ، فحاصرهم حتى صالحوه على الأمان وأجاز ذلك أبو عبيدة. وقيل صولحوا على مقاسمة الدور والكنائس.

(١) يقصد اسكندرونة.

وقيل انتقلوا إلى انطاكية حتى صالحوا ورجعوا إلى حلب. ثمّ سار أبو عبيدة من حلب إلى انطاكية وبها جمع كبير من فلّ قنسرين وغيرهم ولقوه قريباً منها فهزمهم وأحجرهم بالمدينة وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء أو الجزية، ورحل عنهم. ثمّ نقضوا فبعث أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول، وكانت عظيمة الذكر. فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب فيها حامية مرابطة، ولا يؤخر عنهم العطاء.

ثمّ بلغ أبا عبيدة أن جمعاً بالروم بين معرّة مصرين وحلب، فسار إليهم فهزمهم، وقتل بطارقتهم وأمعن بل وأثخن فيهم، وفتح معرّة مصرين على صلح حلب. وجالت خيوله فبلغت سَرْمين وتيري وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية. ثمّ فتح حلب ثانية وسار يريد قورس، وعلى مقدّمته عياض فصالحوه على صلح أنطاكية. وبثّ خيله ففتح تل نِزارٍ وما يليه. ثمّ فتح مَنْبِجَ على يد سَلْمان بن ربيعة الباهلِيّ. ثمّ بعث عِياضاً إلى دَلوك وعَينتاب فصالحهم على مثل منبج، واشترط عليهم أن يكونوا عوناً للمسلمين. وولّى أبو عبيدة على كلّ ما فتح من الكَورِ عاملاً وضمّ إليه جماعة، وشحن الثغور المخوفة بالحامية. واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات».

إذن، ومما كتبه ابن خلدون، يظهر أن المسلمين افتتحوا الأماكن والمدن التالية من شمال بلاد الشام.

- حمص وحماه وشيزر والمعرّة واللاذقية وسلمية وقنسرين واسكندرونة وطرطوس وحلب وانطاكية ومعرة مِصرين وقورس وتل نزار ومنبج ودلوك وعينتاب، أي على كامل بلاد الشام من ناحية الشمال وصولاً إلى الفرات.

هذه الفتوحات الإسلامية دفعت بالإمبراطور هرقل إلى مغادرة الشام وذهابه إلى القسطنطينية بعد أن قال:

«السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلاّ خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته يولد، فما أحلى فعله وأمرّ عاقبته على الروم».(١) وذكر ابن الأثير أن هرقل سحب

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٤٢.

معه المقاتلين الروم الذين كانوا مكلفين الدفاع عن الحصون بين الاسكندرونة وطرطوس.

كما يضيف ابن الأثير إلى المناطق والبلدان التي افتتحها المسلمون أسماء جديدة هي:[١]

- بُوقا والجومة وسرمين وبيرين ورعبان[٢] وقاصرين وبالس[٣].

رابعاً - فتوحات أخرى في شمال بلاد الشام وشرقها

أرسل أبو عبيدة جيشاً بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي إلى بلاد الروم عبر تفليس فاصطدم بقوّة منهم ومعها جماعات من عرب غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل، فجرى قتال بينهما انتصر فيه المسلمون.[٤]

وأرسل أبو عبيدة جيشاً ثانياً بقيادة خالد ابن الوليد إلى مرعش ففتحها وخرّبها وأجلى أهلها عنها.[٥]

في أثناء ذلك فتحت قيسارية من قبل معاوية بن أبي سفيان الذي أرسله شقيقه يزيد بأمر أبي عبيدة.[٦]

وذكر ابن خلدون أن «قتلى الروم في الهزائم بلغ ثمانين ألفاً».[٧]

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٤٣.

(٢) بوقا قرب انطاكية - سرمين والجوقة من قرى حلب - بيرين من قرى حمص - رعبان قرب الفرات.

(٣) بالس بين حلب والرقة.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٤٧.

(٥) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٩٤٧.

(٦) المرجع نفسه.

(٧) المرجع نفسه.



الفصل السادس
عودة القتال إلى الجبهة العراقية

كما سبق القول فإنه، وبعد انتهاء حروب الردة، وبأوامر من الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق، وجّه المسلمون أنظارهم إلى ما جاور شبه الجزيرة العربية من بلاد.

والمنطقتان اللتان وجهت الأنظار إليهما هما:

- بلاد الشام حيث كانت تسيطر الامبراطورية البيزنطية.
- بلاد ما بين النهرين حيث كانت السيطرة للمملكة الساسانية.

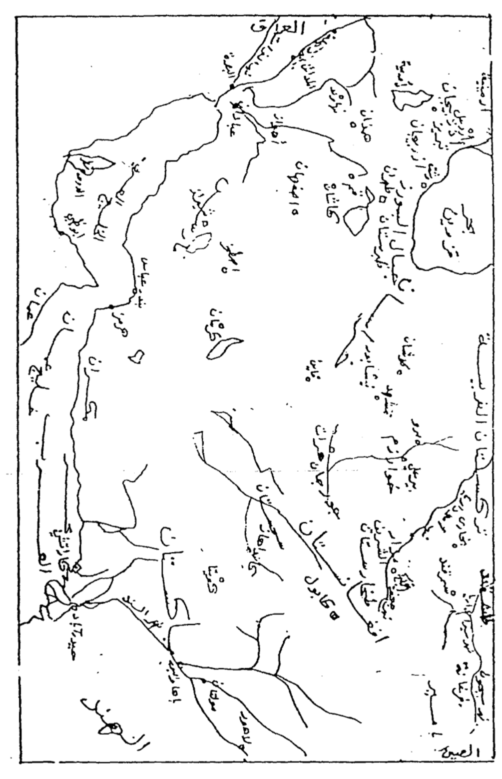
وبالفعل بدأت العمليات أولاً على الجبهة الثانية في العراق حيث تمكّن خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة من الانتصار في معارك عديدة سبق الحديث عنها.[١] وذلك قبل أن ينتقل خالد إلى جبهة الشام للقيام بالانجازات الكبرى التي توّجت بمعركة اليرموك التي أخرجت الروم من بلاد الشام.

وفيما كانت القوات العربية الإسلامية تواجه الجيوش الضخمة للامبراطورية البيزنطية، إضطرّت الخلافة الراشدية إلى نقل جهدها الرئيسي من العراق إلى الشام. إنما، وبنفس الوقت، كلّفت قواتها في العراق المحافظة على المناطق المفتتحة في انتظار إنجاز مخطط الفتوحات على جبهة الشام. لكن مملكة فرس حاولت خلال هذه الحقبة زعزعة الوجود الإسلامي في العراق، وهذا ما سنفصّله في هذا الفصل.

(١) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة.

خارطة رقم ٨

بلاد فارس



أولاً – الوضع على الجبهة العراقية بعد مغادرة خالد بن الوليد

بعد توجه خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، قتل ملك فارس أردشير، فاتفق أهل فارس على تمليك ابنه شهريار. واغتنموا فرصة غياب خالد فوجهوا إلى نائبه المثنى ابن حارثة جيشاً كبيراً بلغ تعداده حوالى عشرة آلاف عليهم هرمز بن جاذويه.(١)

أ – وقعة بابل:

كتب ابن كثير واصفاً القتال الذي جرى بين المثنى وهرمز:(٢)

«وكتب شهريار إلى المثنى: إني قد بعثت إليك جنداً من وحش أهل فارس إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلاّ بهم. فكتب إليه المثنى: من المثنى إلى شهريار إنما أنت أحد رجلين إما باغ لذلك شرّ لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك. وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم، فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير. قال: فجزع أهل فارس من هذا الكتاب، ولاموا شهريار على كتابه إليه واستهجنوا رأيه. وسار المثنى من الحرة إلى بابل، ولمّا التقى المثنى وجيشهم بمكان عند عدوة الصراة الأولى، اقتتلوا شديداً جداً. وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرّق خيول المسلمين، فحمل عليه أمير المسلمين المثنى بن حارثة فقتله. وأمر المسلمين فحملوا، فلم تكن إلاّ هزيمة الفرس فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وغنموا منهم مالاً عظيماً. وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شرّ حالة».

ب – الفوضى في فارس:

وبوصول فلول الجيش الفارسي إلى المدائن وجدوا أن الملك قد مات وتولت الملك ابنة كسرى «بوران بنت ابرويز» التي

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٧.
(٢) المرجع نفسه.

تركت الحكم بعد سبعة أشهر. ملك الفرس عليهم أخت بوران واسمها «آزرميد خت زنان»، لكنها لم تتمكّن من البقاء، فملك الفرس «سابور بن شهريار». إلا انّ آزرميدخت ثارت على سابور وقتلته وعادت إلى الحكم. لكن بوران عادت وانتصرت عليها بمساعدة رستم الذي كلفته القيام بأمور المملكة مدّة عشر سنين، على أن يعود الملك بعد ذلك إلى آل كسرى.(١)

ج - تعزيز جبهة العراق بالجند:

وكان المثنى يراقب ما يجري في البلاط الفارسي، فاستغل فرصة انشغال الفرس بتغيير الملوك، وقرّر الانتقال إلى المدينة لطلب المدد من الخليفة.

وكان المثنى يراقب ما يجري في البلاط الفارسي، فاستغلّ فرصة انشغال الفرس بتغيير الملوك، وقرّر الانتقال إلى المدينة لطلب المدد من الخليفة.

نقل ابن الأثير رواية انتقال المثنى إلى المدينة وطلب المدد، فكتب:(٢)

«وأبطأ خبر أبي بكر على المثنّى، فاستخلف على المسلمين بشير بن الخَصَاصِيَة، [ووضع مكانه في المسالح سعيد بن مرة العجلي]، وسار إلى المدينة إلى أبي بكر ليخبره خبر المشركين، ويستأذنه في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدّين فإنهم أنشط إلى القتال من غيرهم. فقدِم المدينة وأبو بكر مريض قد أشفى فأخبره الخبر، فاستدعى عمر وقال له: «اسمع يا عمر ما أقول لك ثمّ اعمل به: إنّي لأرجو أن أموت يومي هذا، فإذا متّ فلا تَمْسِيَنَّ حتى تندب الناس مع المثنى [وإن تأخّرت إلى الليل، فلا تصبحني حتى تندب الناس مع المثنى]. ولا تشغلنّكم مصيبة [وإن عظمت] عن أمر دينكم ووصية ربكم. فقد رأيتني متوفّى رسول الله ﷺ، وما صنعتُ - وما أصيب الخلق بمثله - وإذا فتح الله على أهل الشام فاردُدْ أهل العراق إلى العراق فإنهم أهله، وولاةُ أمرِه، وأهل [الضراوة بهم] والجراءة عليهم». ومات أبو بكر ليلاً، فدفنه عمر، ونَدَب الناس مع

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٢٦.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

المثنّى، وقال عمر: «قد علم أبو بكر أنه يسؤوني أن أُؤمِّر خالداً فلهذا أمرني أن أرُدَّ أصحاب خالد، وترك ذكره معهم». وإلى آزرميدخت انتهى شأن أبي بكر. فهذا حديث العراق إلى آخر أيام أبي بكر رضي الله عنه».

ونفَّذ عمر بن الخطاب وصية أبي بكر فانتدب الناس مع المثنى إلى العراق ونجح في ذلك وفق ابن خلدون الذي كتب:(1)

ولما وَلِيَ عُمَرُ ندب الناس مع المثنى بن حارثة أياماً وكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود. فقال عمر للناس: إن الحجاز ليس لهم بدار إلا على النجعَة، ولا يقوى عليه أهله إلاّ بذلك. أين المهاجرون عن موعد الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يُورثَكمُوها فقال: ليُظهرَه على الدين كلّه، فالله مُظهرٌ دينه ومُعِزٌّ ناصره ومولي أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون؟ فانتدب أبو عُبيد الثَقَفيّ ثمّ سعد بن عبيد الأنصاري ثمّ سَليط بن قيس، فولى أبا عبيد على البعث لسبقه وقال: اسمع من أصحاب النبيّ ﷺ وأشْرِكْهُم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد فإنها الحرب، والحرب لا يُصلِحها إلاّ الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف. ولم يمنعني أن اؤمّر سليطاً إلاّ لسرعته إلى الحرب، وفي السرعة إلى الحرب - إلا عن بياً - ضياع، والله لولا سرعته لأمّرته. فكان بعث أبي عبيد هذا أول بعث بعثه عمر. ثمّ بعث بعده بعلي بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران، لوصيّة رسول الله ﷺ بذلك في مرضه. وقال: أخبرهم بأنّا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك دينان بأرض العرب، ثمّ نعطيهم أرضاً كأرضهم وفاءً بذمتهم كما أمر الله.

قالوا: فخرج أبو عبيد مع المُثنى بن حارثة وسعد وسليط إلى العراق. وقد كانت بوران بنت كسرى كلّما اختلفت الناس بالمدائن عدلت بينهم حتى يصطلحوا. فلما قتل الفرخزاذ بن البندوان وملكت آزرميدخت، اختلف أهل فارس واشتغلوا

(1) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٠٧ - ٩٠٩.

عن المسلمين غيبة المثنى كلّها، فبعثت بوران إلى رستم تستحثه للقدوم، وكان على فرج[١] خراسان. فأقبل في الناس إلى المدائن، وعزل الفرخزاد وفقأ عين آزرميدخت، ونصّب بوران فملّكته وأحضرت مرازِبَة فارس فأسلموا له ورضوا به وتَوَجَته. وسبق المُثنّى إلى الحيرة ولحقه أبو عبيد ومن معه».

أما عدد المنتدبين إلى العراق فقد فصله ابن كثير إذ كتب:[٢]

«فسار المسلمون إلى أرض العراق وهم سبعة آلاف رجل. وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد إلى العراق، فجهز عشرة آلاف عليهم هاشم بن عتبة. وأرسل عمر جرير بن عبدالله البجلي...».

وهكذا يكون الخليفة عمر قد أمدّ المثنى بواحد وعشرين ألفاً من المجاهدين.

ثانياً – وقعة النمارق

أرسل رستم، منذ تعيينه ملكاً من قبل بوران ابنة كسرى، قائداً عسكرياً محنكاً اسمه «جابان» إلى سواد العراق، وقائداً آخر اسمه «نَرسي» إلى كسكر[٣]. وكلفهما بحماية هاتين المنطقتين من المسلمين، ثمّ حدد ساعة البدء بالحرب ضدهم. كما جهّز جيشاً في المدائن لإرساله مدداً إلى حيث تدعو الحاجة، وخاصة إلى كلّ أمير فارسي يثور على المسلمين.[٤]

أما المثنى الذي كان يراقب الوضع الفارسي، فقد طلب أن تسحب كلّ الوحدات الإسلامية من مناطقها كي لا يهاجمها الفرس منفردة. ونزل المسلمون في مكان اسمه «خفان» بقيادة أبي عبيد بن مسعود حيث بلغ عدد جنود الجيش الإسلامي أحد عشر ألفاً موزعين كما يأتي:

---

(١) الفرج: الخلل بين الشيئين، الثغر، فرج الوادي: بطنه.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٦.

(٣) كسكر مزرعة تنتج نباتاً اسمه «النرسيان» كانت حكراً على الملك وكبار رجال الحاشية.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٤ ، ص ٩٠٩.

- ٩٠٠٠: جيش المثنى بعد ذهاب خالد ابن الوليد.

- ١٠٠٠: مقاتل مع أبي عبيد من المدينة.

- ١٠٠٠: عدد المسلمين الذين جنّدهم أبو عبيد والمثنى من العراق.

أما الفرس فقد أقاموا معسكرهم في مكان يقال له النمارق[١]. وقد بلغ جيشهم حوالى عشرين ألف مقاتل.

وتمهيداً للمعركة، عبأ أبو عبيد قواته، فجعل المثنى على الفرسان، و«والق بن جيدارة» على الميمنة، وعمراً بن الهيثم السّلمي على الميسرة، وأعطى الأمر بالسير نحو النمارق قبل أن تصل المدد إلى «جابان».

نقل الطبري خبر قتال النمارق، فكتب:[٢]

«وخرج المثنّى في جماعة حتى ينزل خَفّان؛ لئلا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه. وأقام حتى قدم عليه أبو عبيد؛ فكان أبو عبيد على النّاس، فأقام بخفّان أياماً ليستجمّ أصحابه؛ وقد اجتمع إلى جابات بشرٌ كثير. وخرج أبو عبيد بعد ما جمّ الناس وظهْرُهم، وتعبّى، فجعل المثنّى على الخيل، وعلى ميمنته والِق بن جيدارة، وعلى ميسرته عمرو بن الهيثم بن الصّلت بن حبيب السلميّ. وعلى مجنّبتي جابان جُشنَس ماه ومَرْدانْشاه. فنزلوا على جابان بالنّمارق، فاقتتلوا قتالاً شديداً. فهزم الله أهل فارس، وأسر جابان، أسره مطر بن فضّة التيميّ. وأسر مَرْدانشاه، أسره أكْتَل بن شمّاخ العُكْليّ. فأمّا أكْتل فإنه ضرب عنق مردانشاه، وأمّا مطر بن فضّة فإن جابان خدعه، حتى تفلّت منه بشيء فخلّى عنه؛ فأخذه المسلمون، فأتوا به أبا عُبيد وأخبروه أنّه الملك، وأشاروا عليه بقتله. فقال: إني أخاف الله أن أقتله؛ وقد أمنه رجل مسلم، والمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسد؛ ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلّهم. فقالوا له: إنه الملك، قال: وإن كان لا أغدر، فتركه».

---

(١) النمارق بين الحيرة والقادسية.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٦٣.

وجمع المسلمون الغنائم الكثيرة، وكان أكثرها من العطور والحلى، فأخرج أبو عبيد الخمس وأرسله إلى الخليفة، ووزع الباقي على المقاتلين.

ثالثاً - وقعة السقاطية

وبعد انتهاء القتال، أمر أبو عبيد المثنى بمطاردة فلول الجيش الفارسي حتى كسكر حيث يتمركز جيش نرسي. وبوصول المثنى إلى كسكر، كان نرسي قد عبأ قواته وكلف بندويه بن بسطام بقيادة الميمنة، وتيرويه بن بسطام الميسرة. كما أرسل إلى رستم وبوران يطلب المدد، فكلفا قائداً كبيراً من قادة الجيش الفارسي هو «الجالينوس»[1] بالتوجّه إلى كسكر بجيش كبير لنجدة نرسي.

ولحق أبو عبيد بالمثنى إلى مشارف كسكر حيث رأى أن يقوم الجيش المسلم بشن هجوم عام فوراً على جيش نرسي قبل أن يصل جيش الجالينوس إليه، خاصة أن معنويات الجند الفرس كانت منهارة بعد التحاق فلول الجنود من النمارق بهم.

كتب ابن كثير عن قتال كسكر ما يلي:[2]

«فالتقوا بمكان بين كسكر والسقاطية وعلى ميمنة نرسي وميسرته ابنا خاله بندويه وبيرويه أولاد نظام. وكان رستم قد جهز الجيوش مع الجالينوس؛ فلما بلغ أبو عبيد ذلك أعجل نرسي بالقتال قبل وصولهم فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت الفرس وهرب نرسي والجالينوس إلى المدائن بعد وقعة جرت من أبي عبيد مع الجالينوس بمكان يقال له باروسما. فبعث أبو عبيد المثنى بن حارثة وسرايا أخر إلى متاخم تلك الناحية كنهر جور ونحوها ففتحها صلحاً وقهراً. وضربوا الجزية والخراج وغنموا الأموال الجزيلة، ولله الحمد والمنة وكسروا الجالينوس الذي جاء لنصرة جابان وغنموا جيشه وأمواله وكرّ هارباً إلى قومه حقيراً ذليلاً».

(١) سيلعب الجالينوس دوراً كبيراً في معركة القادسية.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧.

لقد كانت هذه المعركة قصيرة انهزم بنهايتها الفرس أمام المسلمين الذين اجتاحوا قصر نرسي وصادروا كميات كبيرة من الأطعمة، وزع أبو عبيد قسماً منها على الفلاحين في منطقة كسكر.

وبعد انتهاء المعركة لاحق المسلمون فلول المنهزمين، فسار المثنى نحو باروسما حيث هزم جموع الفرس هناك. ثمّ اجتاح زندورد وبريسي وسبى أهلهما وغنم مالهما وعاد بالغنائم والسبايا إلى كسكر.

أما «والق بن جيدارة» وعروة بن زيد الطائي فسارا مع جندهما نحو الزوابي[١] حيث فرقا جموع الفرس وأسرا عدداً كبيراً منهم، كما سبَيَّا أهل بيتيق[٢] لأنهم كانوا قد التحقوا بجيش نرسي.

رابعاً – وقعة باروسما

كان الجالينوس قد ضمّ إليه المقاتلين الذين شكلوا فلول الجيوش المنهزمة في بابل والنمارق والسقاطية، فتجمّع تحت إمرته جيش كثير العدد. وكان الفرس يعتمدون في قتالهم على الأعداد الكبيرة في المعركة من دون الأخذ في عين الاعتبار أي نواحٍ استراتيجية أخرى.

التقى أبو عبيد على رأس الجيش الإسلامي، وهو على تعبئة كاملة، بقوات الجالينوس في باروسما حيث بادر فوراً إلى شن الهجوم، فلم تدم المعركة طويلاً إذ انهزم الجالينوس وقواته وهرب إلى المدائن.[٣]

كتب ابن الأثير عن وقعة باروسما ما يأتي:[٤]

«ولما بعث رستم الجالينوس أمره أن يبدأ بنرسي، ثمّ يقاتل أبا عبيد فبادره أبو

(١) إحدى ولايات السواد في جنوب الفرات.

(٢) بيتيق: على نهر جوبر.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١٠.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

عبيد إلى نرسي فهزمه. وجاء الجالينوس فنزل بباقسيانا من باروسما فسار إليه أبو عبيد وهو على تعبيته فالتقوا بها فهزمهم المسلمون وهرب الجالينوس، وغلب أبو عبيد على تلك البلاد. ثمّ ارتحل حتى قدم الحيرة، وكان عمر قد قال له: «إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية، تَقْدُم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون؟ واحرز[1] لسانك، ولا تفشين سرك فإنّ صاحب السر ما يضبطه متحصّن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة».

الدروس المستقاة:

أ - استغلّ المثنى بن حارثة فرصة انشغال الفرس بأوضاع بلادهم الداخلية للانتقال من العراق إلى المدينة وطلب مدد من الخليفة. أمر الخليفة بالتعبئة العامة بهدف تعزيز جبهة العراق، وتمكن من إرسال واحد وعشرين ألف مجاهد إليها.

ب - وأحسن رستم، القائم بأعمال مملكة فارس، في التخطيط لحرب المسلمين، إذ أنه كلّف جيشين بحماية مناطق بلاد ما بين النهرين، وجهّز جيشاً في المدائن كاحتياط عام لتسييره إلى حيث تدعو الحاجة محققاً بذلك مبدأي «حرية العمل» و«الحصيل الأقصى للوسائل».

ج - المثنى، من جهته، طبّق قاعدة حشد القوى وتجميعها كي لا يهاجمها الفرس الواحدة تلو الأخرى فيقضون عليها.

ثمّ أحسن المسلمون تطبيق قواعد الانتشار لخوض المعركة بين ميمنة وقلب وميسرة، الأمر الذي أهّلهم للنصر على الفرس في وقعة النمارق رغم عدم تحقيقهم مبدأ «نسبية الأهداف للوسائل». كما نفذ المسلمون استراتيجية «ملاحقة العدو المنهزم» و«استغلال النصر» المحقق في النمارق.

د - وفي السقاطية، عجّل القائد العربي أبو عبيد بمواجهة الجيش الفارسي قبل وصول المدد إلى هذا الأخير، فهزمه مطبقاً

(١) احرز: أي احفظ.

بذلك استراتيجية «المناورة بالخطوط الداخلية»، لا سيما وأن معنويات المقاتلين الفرس كانت منهارة بسبب التحاق فلول المنهزمين في النمارق بهم.

وبعد معركة السقاطية تابع القائد العربي المثنى بن حارثة اعتماد استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية، فانتصر على جيش الفرس بقيادة الجالينوس في معركة باروسما قبل أن يجتاح مناطق فارسية جديدة منتصراً على حامياتها. هذا فيما كانت بقية الجيوش العربية تهاجم جموع الفرس وتنتصر عليهم في مناطق أخرى.

هـ - خلال وقعة باروسما كان الجيش الفارسي بقيادة الجالينوس يشكو من مساوىء عديدة أبرزها:

١ - إن غالبية جنده هم من الذين قاتلوا المسلمين في مواقع سابقة وهُزموا. لذلك فإن معنوياتهم ستكون منهارة في حال واجهوا القوات العربية مجدداً.

٢ - الجيش الفارسي يتشكّل عامة من فرق من مختلف الولايات التابعة للفرس. وكلّ فرقة كانت تتكلّم لغتها الخاصة وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الخاصة.[١]

٣ - الجحافل الجرارة التي كان يجمعها الفرس لم تكن تشكل أبداً وحدة متجانسة. وهنا تكمن نقطة الضعف في الجيش الفارسي لأن أول بادرة ضعف تظهر خلال المعركة قد تتحوّل إلى كارثة من قبل الجموع الغوغائية التي لا يجمعها سوى السلطة.

وهذا ما حصل في باروسما.

وهذا ما حصل أيضاً في القادسية التي سنتكلم عنها.

خامساً - معركة الجسر أو «قس الناطف»

أعطت الانتصارات المتتالية للمسلمين ثقة كبيرة لقائدهم أبو عبيد الذي أصبح يتخذ قراراته الخاصة رغم معارضة باقي القادة في جيشه، وهذا ما سيؤدي إلى كارثة الجسر.

(١) ريحانا، سامي، عميد دكتور، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٠٢.

أما الفرس، فإن رستم المكلّف بشؤون المملكة من قبل بوران، أصبح بحاجة إلى نصرٍ ما في إحدى المعارك ليعيد الثقة بنفسه، وإلى شعبه الذي تعرّض للهزائم المتتالية. لذلك سأل، خاصة لما رجع الجالينوس إليه منهزماً، عن أي قائد هو الأفضل لمواجهة المسلمين، فأجابوه: هو بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب.(١)

وكان بهمن جاذويه من أهم القادة الفرس المجربين في القتال ضد المسلمين والذين يحسنون استعمال الفيلة في المعارك.

استدعى رستم بهمن وكلفه قيادة الجيش الذي عزّزه بأفيال عدّة مدرّبة على القتال تدريباً عالياً وخاصة الفيل الأبيض، وهو أكبرها وقائدها. كما شكّل فرقة من الرجال المدرعين بالحديد قوامها أربعة آلاف دارع. ودفع إلى بهمن راية ملك فارس، وهي من جلود النمر بطول اثنتي عشرة ذراعاً وعرض ثماني أذرع.(٢) وقال رستم لبهمن: «إذا انهزم الجالينوس ثانية، فاضرب عنقه».

وبعد أن اكتمل تجهيز الجيش الفارسي الذي تجاوز عدده العشرين ألف مقاتل، خرج بهمن به وهدفه الحيرة لطرد المسلمين منها.

ولما وصلت الأخبار إلى أبي عبيد عن خروج جيش الفرس، ترك الحيرة بعد أن استخلف عليها أحد المسلمين، وسار شمالاً حتى بابل ومنها شرقاً حتى نهر الفرات. وأقام معسكره في مكان يسمّى «المروحة»، فيما كان جيش بهمن يتمركز على الجانب الآخر من النهر في مكان يدعى «قس الناطف».(٣)

بعد تمركز الجيشين، أرسل بهمن إلى أبي عبيدة قائلاً:

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٦٦.

قيل له «ذي الحاجب» لأنه كان يعصب حاجبيه بعصابة حتى لا يسقطا على عينيه نظراً لعظمهما.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١٠.

(٣) لذلك سميت معركة الجسر أيضاً معركة «قس الناطف» - أما المروحة فهو مكان برج بابل القديم.

- «أما أن تعبروا إلينا، وأما أن تدعونا نعبر إليكم».

وعندما سمع المسلمون اقتراح بهمن أشاروا على أميرهم بأن يترك الفرس يعبرون لأن في العبور الهلاك. لكن أبا عبيد، الذي كان منتشياً بانتصاراته المتتالية، رفض نصيحة أخصائه قائلاً:(١)

- «لا يكونوا أجرأ على الموت منا. بل نعبر إليهم».

ثمّ أوصى إثر ذلك قائلاً:

- «إذا أنا متّ فأخي الحكم الأمير... وإن مات ففلان الأمير... (وسمى سبعة من ثقيف) - وأضاف: فإن قتل الأخير فعليكم المثنى».

وبلغ عديد الجيش العربي تسعة آلاف مقاتل.

أما بهمن، فقد وزع قواته بشكل يدلّ إلى ذكاء ومهارة إذ أنه ترك قطعة أرض صغيرة ضيّقة عند فم الجسر مباشرة للمسلمين بحيث تنعدم كلّ حركة كرّ وفرّ بعد عبورهم الجسر الذي كان مصنوعاً من الحبال الغليظة وقطع الأخشاب.

وصف ابن الأثير في شكل كامل تفاصيل معركة الجسر التي هزم فيها المسلمون وقتل أربعة آلاف منهم فيما قتل ستة آلاف من الفرس الذين ربحوا المعركة الأولى في صراعهم ضد المسلمين. كتب ابن الأثير:(٢)

«وبعث إليه بهمن جاذويه إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإمّا أن تَدَعُونا نعبر إليكم. فنهاه الناس عن العبور ونهاه سليط أيضاً فلجّ وترك الرأي وقال: «لا يكونوا أجرأ على الموت منا»، فعبر إليهم على جسر عقده ابن صلوبا للفريقين. وضاقت الأرض بأهلها واقتتلوا، فلما نظرت الخيول إلى الفيلة والخيل عليها التجافيف رأت شيئاً منكراً لم تكن رأت مثله [فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم] فلم تقدم عليهم [خيولهم] وإذا حملت الفرس على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرقت خيولهم

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٦٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٨٦ - ٢٨٨.

وكراديسهم. ورموهم بالنشاب واشتدّ الأمر بالمسلمين، فترجّل أبو عبيد والناس ثمّ مشوا إليهم، ثمّ صافحوهم بالسيوف، فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلاّ دفعتهم. فنادى أبو عبيد احتوشوا الفيلة، واقطعوا بطانَها[1]، واقلبوا عنها أهلها. ووثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطانه ووقع الذين عليه. وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلاً إلاّ حطوا رحله، وقتلوا أصحابه. وأهوى الفيل لأبي عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه، فلمّا بَصُرَ به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم.

ثمّ أخذ اللواء الذي أمّره بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه. ثمّ قتل الفيل الأمير الذي بعد أبي عبيد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلّهم يأخذ اللواء، ويقاتل حتى يموت. ثمّ أخذ اللواء المثنّى فهرب عنه الناس. فلمّا رأى عبدالله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه، وما يصنع الناس بادرهم إلى الجسر فقطعه وقال: يا أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا. وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر فتواثب بعضهم إلى الفرات فغرق مَنْ لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر. وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال: أنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا [فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب] ولا تغلقوا نفوسكم [فعبروا الجسر].

وقاتل عروة بن زيد الخيل قتالاً شديداً وأبو محجن الثقفي، وقاتل أبو زبيد الطائي حَميّة للعربية وكان نصرانياً قَدِمَ الحيرة لبعض أمره. ونادى المثنّى: من عَبَر نجا. فجاء العلوج فعقدوا الجسر وعبر الناس وكان آخر من قتل عند الجسر سليط بن قيس. وعبر المثنى وحمى جانبه، فلما عبر أرفض عنه أهل المدينة [حتى لحقوا بالمدينة، وتركها بعضهم ونزلوا البوادي]، وبقي المثنى في قلة، وكان قد جُرِح وأثبت فيه حلق من درعه [هتكهن]، وأخبر عمر عمن سار في البلاد من الهزيمة استحياء

(١) بطان الرحل: أي الحزام.

فاشتدّ عليه، [ذلك ورحمهم]، وقال: «اللهمّ إنّ كلّ مسلم في حِلٍّ مني، أنا فئة كُلّ مسلم، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إليّ لكنت له فئة.

وهلك من المسلمين [يومئذ] أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي ثلاثة آلاف.

وقتل من الفرس ستة آلاف، وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه وصاروا فريقين الفهلوج على رستم، وأهل فارس على الفيزران، فرجع إلى المدائن.

وكانت هذه الوقعة في شعبان.

وكان فيمن قتل بالجسر عقبة، وعبدالله إبنا قبطي بن قيس، وكانا شَهِدا أحداً؛ وقتل معهما أخوهما عباد ولم يشهد معهما أحداً. وقتل أيضاً قيس بن السكن بن قيس أبو زيد الأنصاري وهو بدري لا عقب له، وقتل يزيد ابن قيس بن الخطيم الأنصاري شهد أحداً، وفيها قتل أبو أمية الفزاري له صحبة، والحكم بن مسعود أخو أبي عبيد، وابنه جبر ابن الحكم بن مسعود».

روى الطبري وابن خلدون وابن كثير وغيرهم روايات مشابهة لرواية ابن الأثير لم نرَ موجباً لإعادة إدراجها في هذا الفصل.

وذكر ابن كثير أن هذه الوقعة حصلت في شعبان من السنة ثلاث عشرة، بعد اليرموك بأربعين يوماً.

- **الدروس والنتائج:**

أ - أحسن رستم معالجة قضية الهزائم المتتالية التي تعرّضت لها جيوش الفرس، فقام باستشارة معاونيه قبل اختيار القائد الفارسي الذي سيكلف بالصراع ضد المسلمين.

فالقائد العام للجيش يعاونه عادة ضباط أركان يتوزّعون المهام التالية:

أ - الشعبة الأولى: تعالج موضوع العديد والتعبئة والمعنويات.

ب - الشعبة الثانية: تختص بالاستخبارات.

ج - الشعبة الثالثة: تهتم بالتدريب والعمليات.

د - الشعبة الرابعة: تؤمن اللوجستية للوحدات التابعة للجيش.

هـ - الشعبة الخامسة: تتابع موضوع الإعلام.

أما في الزمن التي جرت فيه الأحداث التي نعالجها في هذا الجزء، فلم يكن هذا التقسيم قد اعتمد في القيادات العسكرية إذ كان القائد العام يعطي الأوامر مباشرة للوحدات الكبرى التابعة لجيشه. وقد يستشير ذوي الاختصاص قبل أخذ القرارات العملانية، وقد لا يفعل. لكن رستم فعل وأحسن اختيار القائد الذي سينتصر على المسلمين في وقعة الجسر فيسجل الانتصار الأول عليهم خلال حملتهم على بلاد فارس.

ب - عزّز رستم جيش بهمن بالفيلة التي لم يكن المسلمون قد تمرّسوا على القتال ضدها. لذلك شكّل استعمال الفيلة من قبل الفرس مفاجأة تكتية للمسلمين مماثلة لمفاجأة استعمال الدبابة للمرة الأولى سنة ١٩١٧ في الحرب العالمية الأولى من قبل البريطانيين في معركة كومبري CAMBRAI. والمفاجآت في الحرب تؤمن عادة حرية العمل والحصيل الأقصى للوسائل وقد تكون استراتيجية عامة أو تكتية أو تقنية.

فالاستراتيجية تحصل على مستوى مسرح العمليات الواسع، والتكتية تؤمنها مناورة الوحدات على جبهة معينة. أما التقنية فتُحقق باستعمال سلاح أو وسيلة قتالية جديدة كالفيلة مثلاً.

علاوة على الفيلة، زوّد رستم الجيش الفارسي بفرقة من الرجال المدرعين بالحديد قوامها أربعة آلاف مقاتل محققاً بذلك مبدأ الحرب الثالث أي «الحصل الأقصى للوسائل».

ج - تمكن رستم من تعزيز جيشه بشكل يسمح له بتطبيق مبادىء الحرب الثلاثة وذلك كالآتي:

- المبدأ الأول: (نسبية الأهداف للوسائل) إذ أنه بلغ عدد جيشه عشرين ألف مقاتل مقابل تسعة آلاف مقاتل للجيش الإسلامي. يضاف إلى هؤلاء عدد من الفيلة كان لاستعمالها في القتال دور مهم في حسم المعركة لمصلحة الفرس.
- المبدأ الثاني: (حرية العمل) إذ أن بهمن اختار مكان المعركة بشكل لم يترك للمسلمين سوى قطعة أرض صغيرة ضيقة عند فم جسر بحيث تنعدم لديهم إمكانية الكر والفرّ بعد عبورهم الجسر.
- المبدأ الثالث: (الحصيل الأقصى للوسائل) الذي أمّنه وجود الفيلة والرجّالة المدرّعة في عداد الجيش الفارسي.

د - أخطأ القائد العربي أبو عبيد بعبور الجسر إلى جانب النهر الآخر بدلاً من ترك الفرس يعبرون إليه. كما أنه لم يتأكّد من إمكان قيام جيشه بالمناورة بعد عبوره الجسر، الأمر الذي أفقده حرية عمله في وقت كان الجيش الفارسي يفوق جيشه بالعدد والوسائل.

ورغم أنه أحسن في تسمية من يخلفه في قيادة الجيش في حال مقتله، فإن عدم تطبيقه لمبادىء الحرب أدى إلى خسارته المعركة.

هـ - أحسن بهمن في استعمال الفيلة في الهجوم على المسلمين إذ أن المفاجأة التكتيكية كانت كاملة ففرّت الخيول من أمام الفيلة التي أمّنت للجيش الفارسي حسن تطبيق مبدأ «الحصيل الأقصى للوسائل». وذلك رغم استبسال القادة المسلمين في القتال الأمر الذي أدى إلى استشهاد عدد كبير منهم بعد محاولتهم قتل أحد الفيلة.

و - أحسن المثنى بن حارثة في حماية المسلمين المتراجعين أمام هجوم الفرس والذين عبروا الجسر لفكّ اشتباكهم مع العدو والتراجع عن مكان المعركة.

فتراجع المقاتلين عن مكان المعركة بعد خسارتها هو عملية تكتيكية معقّدة وخطرة لا سيما إذا اعتمد عدوّهم استراتيجية ملاحقة المنهزمين والقضاء عليهم تنفيذاً لقاعدة «استغلال النصر» التي سبق الحديث عنها في هذه الموسوعة.

لقد كان دور القائد العربي المثنى كبيراً في هذه المعركة إذ أنه قام بمهمّة تأمين عبور المقاتلين المسلمين المنهزمين نهر الفرات إلى الجانب الآخر لحمايتهم من سيوف الفرس الذين كانوا يلاحقونهم.

ز - كانت معركة الجسر كارثة ضخمة أصابت المسلمين. لذلك تراجع هؤلاء إلى المروحة وفرّ قسم منهم إلى المدينة، فلم يؤنّب الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) المنهزمين. فلمّا رأى جزعهم من الفرار قال:

«لا تجزعوا يا معشر المسلمين، أنا فيئكم».[1]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٨.

أما المثنى، فقد راح يجمع المقاتلين رغم إصابته البليغة وذلك تمهيداً للمعارك اللاحقة.

سادساً – وقعة أُلّيس الصغرى

شُغل الفرس بأمر ملكهم، وذلك أن أهل المدائن ثاروا على رستم فخلعوه، ثمّ أعادوه للحكم على أن يتقاسمه مع الفيرزان.[١] وركب الفرس إلى المدائن، فلحقهم المثنى ابن حارثة في جمع من فرسان المسلمين، وذلك بعد أن كانت قد برزت بطولته في إنقاذه ما تبقى من جيش المسلمين في معركة الجسر.

وكان في مدينة ألّيس أميران من أمراء البلاط الفارسي هما جابان ومردانشاه. فلما بلغتهما أخبار هزيمة المسلمين، خرجا يريدان القضاء على من تبقى منهم من دون أن يعلما أن بهمن عاد بجنده إلى المدائن بسبب الفتنة هناك.

وكان أهل أُلّيس يفضلون المسلمين على الفرس، لذلك أرسلوا إلى المثنى بخبر خروج الأميرين المذكورين اللذين اعتقدا أن المثنى هارب أمام الجيش الفارسي فاعترضاه وهاجماه. لكن المثنى، ورغم الجروح التي أصابته في معركة الجسر، تغلب عليهما بفرسانه وأسرهما وضرب عنقهما وأعناق من معهما. وهكذا ثأر من معركة الجسر الثأر الأول، لأن الثأر الكبير سيكون في معركة البُويب.[٢]

كتب ابن خلدون عن وقعة أليس ما يأتي:[٣]

«وبينما بهمن جاذويه يروم العبور خلف المسلمين أتاه الخبر بأن الفرس ثاروا برستم مع الفيرزان، فرجع إلى المدائن، وكانت الوقعة في مدائن سنة ثلاث عشرة. ولما رجع بهمن جاذويه أتبعه جابان ومعه مردان شاه. وخرج المثنى في أثرهما، فلمّا أشرف عليهما أتياه يظنان أنه هارب فأخذهما أسيرين. وخرج أهل ألّيس على أصحابهما

(١) الفيرزان كان من عظماء الفرس.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٦٩.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٤ ، ص ٩١١ - ٩١٢.

فأتوه بهم أسرى، وعقدوا معه مهادنة وقتل جميع الأسرى».

بعد هذه الوقعة عاد المثنى إلى الحيرة في انتظار متابعة القتال ضد المملكة الساسانية.

سابعاً – معركة البويب

أرسل المثنى، بعد أن عاد أميراً للمسلمين في العراق وبعد إنجازاته القتالية الكبيرة فيه، يطلب مدداً من الخليفة عمر بن الخطاب الذي لبى نداءه.

كتب ابن خلدون يصف إرسال المدد إلى المثنى:(1)

«ولما بلغ عمر (رض) عن وقعة ابن عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى وكان فيمن ندب بَجِيلَة وأمّرهم إلى جرير بن عبدالله الذي جمعهم من القبائل بعد أن كانوا مفترقين، ووعده النبي ﷺ بذلك، وشغل عن ذلك أبو بكر بأمر الردّة ووفى له عمر به، وسيّره مدداً للمثنى بالعراق. وبعث عصمة بن عبدالله الضبيّ، وكتب إلى أهل الردّة بأن يوافوا المثنى. وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فوافوا في جموع عظيمة، حتى نصارى النمر جاؤوه وعليهم أَنَس بن هلال، وقالوا نقاتل مع قومنا».

وكانت أول فرقة تعزيز وصلت إلى الحيرة هي فرقة بجيلة بقيادة جرير بن عبدالله، وفيها بطون قيس كُبَّة وعُرَينة وسُحمة وجميعهم من قبائل عامر بن صعصعة الذين بلغ عددهم ألفي مقاتل بين فارس وراجل. ثمّ أخذ المسلمون يأتون إلى العراق وفيهم من ارتدّ عن الإسلام ثمّ عاد إلى إسلامه لا سيما من قبائل ضبّة وكنانة والأزد والرباب وجُشم وخثعم وحنظلة وعمرو وعبد القيس.

وهكذا اجتمع إلى المثنى جيش مكوّن على الشكل الآتي:

- ٤٠٠٠ مقاتل من الذين شاركوا بمعركة الجسر وأكثرهم من بني شيبان وعجل وتميم.

(1) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١١ – ٩١٢.

- ٧٠٠ من كنانة والأزد.
- ٢٠٠٠ من بجيلة.
- ١٢٠٠ من باقي القبائل التي ذكرت.

أ - وضع الفرس:

أستتبّ الوضع في المدائن بعد أن تقاسم الحكم رستم والفيرزان برعاية بوران. وانصرف الملكان إلى التحضير لمهاجمة الحيرة وطرد المسلمين من العراق بعد أن هُزمت جموعهم في معركة الجسر التي لم تكن حاسمة.

ولمّا علما بخبر الحشود التي وافت المثنى إلى العراق، قررا إرسال جيش كبير لملاقاته على أن يكون بغالبيته من الفرسان، وكلفا مهران بن باذان الهمذاني بقيادته.[١]

خرج مهران قاصداً الحيرة بعد أن بلغ عديد جيشه ثلاثين ألفاً.

ب - الاستعداد للمعركة:

عندما وصلت أخبار مسير الجيش الفارسي إلى المثنى وعلم من سرعة تقدمه أنه من الفرسان في غالبيته، قرّر نقل المعركة إلى خارج الحيرة التي استخلف عليها بشيراً بن الخصاصية وترك فيها حامية قليلة، ثمّ سار إلى البويب حيث ستلاقيه المدد التي أرسلها الخليفة.[٢] كما أرسل إلى ابن الخصاصية في الحيرة قائلاً: «إذا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجّلوا اللحاق بنا، وموعدكم البُويب»[٣]. وأرسل مثل هذا الأمر إلى قادة فرق التعزيز التي أرسلها الخليفة.

وبوصول كلّ الفرق عبّأ المثنى قواته فجعل على ميمنته بشيراً بن الخصاصية، وعلى ميسرته بُسر بن أبي رُهم الجهني، وعلى الخيل أخاه المعني، وعلى المشاة أخاه مسعوداً. وشكل فرقة طليعة تتقدّم الجيش يقودها النُسير بن ديسم بن ثور

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٩.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٧٠.
(٣) المرجع نفسه.
- البويب قناة تصريف مياه تتفرّع من الفرات.

العجلي،[1] وفرقة إحتياطية يقودها مذعور ابن عدي.

وصل مهران إلى الجهة الشمالية من قناة البويب فنظم صفوفه بسرعة استعداداً للمعركة، وأرسل إلى المثنى بكتاب جاء فيه:[2]

- «إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم».

فقال المثنى: «إعبروا أنتم».

ج - المعركة:

لم يقع المثنى في الخطأ الذي وقع فيه أبو عبيد، بل جعل الفرس يجتازون الجسر، لذلك يكون قد أفاد من خطأ غيره.

نقل ابن الأثير تفاصيل قتال البويب الذي انتصر فيه العرب انتصاراً ساحقاً آخذين بثأر معركة الجسر، فكتب:[3]

«وأرسل مهران إلى المثنى يقول: إما أن تعبر إلينا وإما أن نعبر إليك، فقال المثنى: اعبروا، فعبر مهران فنزل على شاطىء الفرات. وَعَبى المثنّى أصحابه وكان في رمضان فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم فأفطروا. وكان على مجنبتي المثنى بشير بن الخصاصية وبُسْر بن أبي رُهم، وعلى مجردته المعني أخوه، وعلى الرّجل مسعود أخوه، وعلى الردء مذعور. وكان على مجنبتي مهران بن الازاذبه مرزبان الحيرة، ومردانشاه. وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كلّ صف فيل ورجلهم أمام فيلهم ولهم زجل. فقال المثنى للمسلمين: إنّ الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت [وائتمروا همسا]، ودنوا من المسلمين. وطاف المثنى في صفوفه يعهد إليهم، وهو على فرسه «الشموس» وإنما سمي بذلك للينه وكان لا يركبه إلاّ إذا قاتل فوقف على الرايات [رايةً راية] يحرّضهم [ويأمرهم بأمره] ويهزهم [بأحسن ما فيهم]، ولكلهم يقول: «إني لأرجو أن لا يؤتى الناس من قِبَلكم اليوم،

---

(١) من اشراف عجل.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، جزء ٢، ص ٣٧٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٨٩ - ٢٩١.

والله ما يسرّني اليوم لنفسي شيءٌ إلاّ وهو يسرني لعامتكم» فيجيبونه بمثل ذلك. وأنصفهم من نفسه في القول والفعل وخلط الناس في المحبوب والمكروه فلم يقدر أحد أن يعيب له قولاً ولا فعلاً، وقال: إني مُكَبِّرٌ ثلاثاً فتهيأوا ثمّ املوا في الرابعة.

فلمّا كبّر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم [مع أول تكبيرة]، وركدت خيلهم وحربهم ملياً فرأى المثنى خللاً في بني عجل، فجعل يمدّ لحيته لما يرى منهم. وأرسل إليهم يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم.

فقالوا: نعم، واعتدلوا فضحك فرحاً. فلما طال القتال واشتدّ، قال المثنى لأنس بن هلال النمري: إنّك امرؤٌ عربي وإن لم تكن على ديننا، فإذا [رأيتني قد] حملتُ على مهران فاحمل معي.

فأجابه، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته. ثمّ خالطوهم، واجتمع القلبان، وارتفع الغبار والمجنبات تقتتل لا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون. وارتث مسعود أخو المثنى يومئذ وجماعة من أعيان المسلمين. فلما أصيب مسعود تضعضع من معه، فقال: يا معشر بكر ارفعوا رايتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعي. وكان المثنى قال لهم: إذا رأيتمونا أُصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه [فإن الجيش ينكشف ثمّ ينصرف]، الزموا مصافكم واغنوا عمن يليكم، وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين.

وقَتَل غلام نصراني من تغلب مهران واستوى على فرسه [ثمّ انتمى[1] «أنا الغلام التغلبي، أنا قتلت المرزبان»]. فجعل المثنى سبله لصاحب خيله، وكان التغلبي قد جلب خيلاً هو وجماعة من تغلب، فلمّا رأوا القتال قاتلوا مع العرب.

قال: وأفنى المثنى قلب المشركين والمجنبات بعضها يقاتل بعضاً، فلما رأوه قد أزال القلب وأفنى أهله وَثَب مجنبات المسلمين على مجنبات المشركين،

(١) انتمى أي انتسب إلى قومه.

وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم. وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم: «عاداتكم في أمثالهم انصروا الله ينصركم»، حتى هزموا الفرس. وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم فافترقوا [بشاطىء الفرات] مصعدين ومنحدرين، وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثاً. فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمة منها بقيت عظام القتلى دهراً طويلاً، وكانوا يحزرون القتلى مائة ألف. وسمي ذلك اليوم «الأعشار» أُحْصِي مائة رجل قتل كلّ رجل منهم عشرة، وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب الكناني وعرفجة الأزدي، من أصحاب التسعة.

وقتل المشركون فيما بين السكون اليوم وضفة الفرات، وتبعهم المسلمون إلى الليل ومن الغد إلى الليل، وندم المثنى على أخذه بالجسر؛ وقال: «عجزتُ عجزة» وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر [وقطعه] حتى أحرجتهم فلا تعودوا [ولا تقتدوا بي] أيها الناس إلى مثلها فإنها كانت زَلّة، فلا ينبغي إحراج من لا يقوى على امتناع. ومات أناسٌ من الجرحى [من أعلام المسلمين]، منهم مسعود أخو المثنى، وخالد بن هلال، فصلى عليهم المثنى (وقدّمهم على الأسنان[1] والقرآن]، وقال: «والله إنه ليهوّن عليّ وجدي أن صبروا وشهدوا البويب [ولم يجزعوا]، ولم ينكلوا، [وإن كان في الشهادة كفارة لتجوز الذنوب].

وكان قد أصاب المسلمون غَنَماً ودقيقاً وبقراً فبعثوا بها إلى عيال من قدم من المدينة وهم بالقوادس.

وأرسل المثنى الخيل في طلب العجم فبلغوا السِّيْب.

وغنموا من البقر والسبي وسائر الغنائم شيئاً كثيراً فقسمه فيهم، ونفل أهل البلاء [من جميع القبائل]، وأعطى بجيلة ربع الخمس، وأرسل الذين تبعوا المنهزمين إلى المثنى يعرّفونه سلامتهم وأنه لا مانع

---

(١) أي الأكبر سناً.

دون القوم ويستأذنونه في الإقدام فأذن لهم فأغارروا حتى بلغوا ساباط.(١) وتحصّن أهله منهم واستباحوا القرى، ثمّ مخروا السواد فيما بينهم وبين دجلة لا يخافون كيداً ولا يلقون مانعاً، ورجعت مسالح العجم إليهم وسرّهم أن يتركوا ما وراء دجلة»

د - الدروس والنتائج:

١ - بعد خسارة المسلمين في معركة الجسر، قرروا الانتقام من الفرس فقاموا بعملية تعبئة شاملة للمقاتلين وأرسلوا المدد إلى المثنى في العراق مستعملين أهل الردّة للمرة الأولى بعد قمع حركاتهم. وهكذا أحسنوا تطبيق مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل»، إذ أصبح المثنى يقُود حوالى ثمانية آلاف مقاتل.

٢ - لم يحسن الفرس استغلال نصرهم في معركة الجسر بسبب انشغالهم بالأوضاع السياسية التي حصلت في دولتهم بعد المعركة. لذلك تمكّن قسم كبير من المقاتلين المسلمين الذين فرّوا من الجسر من إعادة تجميع أنفسهم والالتحاق بقيادة المثنى والانتصار على وحدة فارسية في وقعة أليس الصغرى مطبقين قاعدة «تجميع القوى».

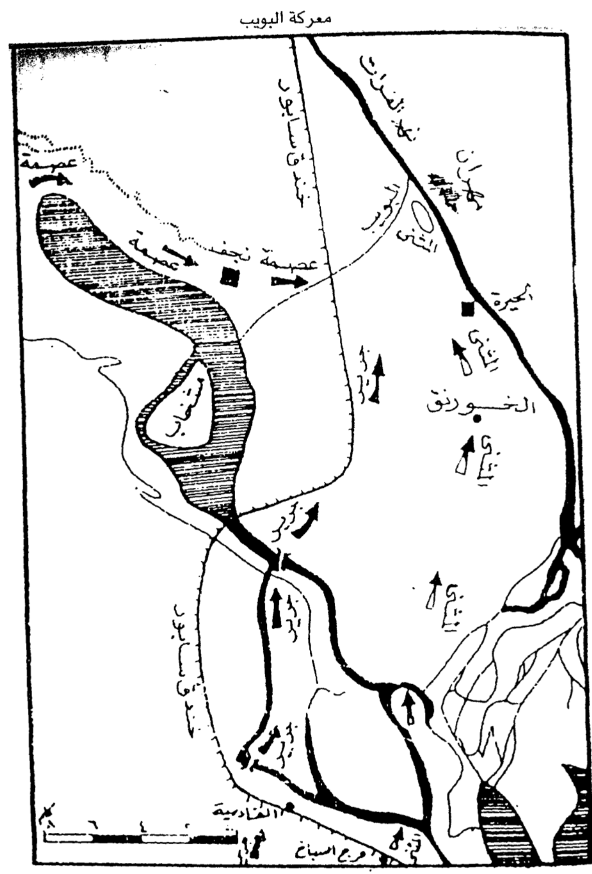
٣ - أحسن المثنى تقسيم قواته قبيل المعركة بين ميمنة وميسرة وطليعة وخيالة ورجالة محتفظاً باحتياط عام ومؤمناً بذلك حرية عمله والحصيل الأقصى لوسائله.

وتجنب المثنى الوقوع في خطأ عبور النهر قبيل المعركة الذي سبق واقترفه أبو عبيد في معركة الجسر.

٤ - جال المثنى على وحدات جيشه مشجعاً، الأمر الذي رفع من معنوياتهم وزاد في حوافزهم للقتال. ولمّا لمس خللاً لدى بني عجل، أرسل إليهم من شجّعهم وزاد في حماسهم، فأحسن معالجة الخلل. فالقائد الذي يبقى جاهزاً للتدخّل الدائم وسدّ الثغرات في جيشه أثناء المعركة يكون قد أحسن إدارتها بتدخّله الدائم في الوقت والمكان المناسبين.

(١) ساباط: قرية قريبة من المدائن على نهر الملك.

معركة البويب



٥ - حسم المثنى المعركة بتنفيذه عملية هجوم صاعقة على قلب الجيش الفارسي فأعطى المثل الصالح لوحداته التي ساهمت في تعميم الهجوم على الفرس وهزيمتهم.

٦ - لاحق الجيش العربي شرازم الفرس المنهزمة فأحسن تطبيق قاعدة «استغلال النصر».

٧ - كانت معركة البويب معركة إفناء إذ أن المثنى حصر الفرس في بقعة أرض ضيقة. لكن قسماً من جيش الفرس استطاع الفرار عبر القناة بعد أن ترك له المسلمون سبيل النجاة كي لا يستبسل عناصره في القتال.

٨ - وتبدو أهمية البويب، ليس فقط في رفع معنويات العرب المسلمين بعد هزيمة الجسر، إنما وخاصة في أنهم أصبحوا مسيطرين على السواد بعد اجتياز نهر الفرات وتحرير المنطقة الممتدّة بين دجلة والفرات من السيطرة الفارسية.

فمعركة البويب شكّلت منعطفاً مهماً للعمليات على الجبهة العراقية، وتمهيداً للمعركة الكبرى الحاسمة بين العرب المسلمين والفرس في القادسية.

٩ - قيل أن عدد قتلى الفرس بلغ عشرين ألفاً، وأن عدداً كبيراً من المسلمين استشهد في هذه المعركة التي كانت ثأراً لمعركة الجسر.

ثامناً - وقائع وإنجازات المثنى بعد البويب

انتدب المثنى مقاتلين لمطاردة المنهزمين في وقعة البويب، فأغار هؤلاء حتى وصلوا إلى السيب وأسروا كلّ من صادفوه من الفرس. ثمّ أغاروا شمالاً حتى بلغوا ساباط التي تحصن أهلها فيها وأقفلوا أبوابها. فأغار المسلمون على قراها ثمّ حاصروا الحصن وافتتحوه وغنموا منه غنائم كثيرة.[1]

ثمّ أغار المثنى بمجموعة من الفرسان على سوق الخنافس الذي كان يقام في

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٧٥.

العراق وغنم الأموال والمواشي والإبل وما تحمله من بضائع. ثمّ اجتاح الأنبار وغنم الكثير من الغنائم.(١)

أما الإغارة على سوق بغداد وغيرها من وقائع المثنى التي سبقت وقعة القادسية، فقد كتب عنها الطبري ما يلي:(٢)

«فخرج من ألّيس حتى أتى الخنافس، ثمّ عاج حتى رجع على الأنبار، فلمّا أحسّه صاحبها تحصّن وهو لا يدري من هو؛ وذلك ليلاً. فلمّا عرفه نزل إليه فأطعمه المثنّى، وخوّفه واستكتمه، وقال: إنّي أريد أن أغيرَ فابعث معي الأدلاّء إلى بغداد، حتى أغير منها إلى المدائن. قال: أنا أجيء معك، قال: لا أريد أن تجيء معي، ولكن إبعث معي مَن هو أدلّ منك. فزوّدهم الأطعمة والأعلاف، وبعث معهم الأدلّة، فساروا حتى إذا كانوا بالنّصف، قال لهم المثنّى: كم بيني وبين هذه القرية؟ قالوا: أربعة أو خمسة فراسخ. فقال لأصحابه: مَن ينتدب للحرَس؟ فانتدب له قومٌ فقال لهم: أذكُوا حرسكم، ونزل، وقال: أيّها الناس، أقيموا واطعموا وتوضّؤوا وتهيّؤوا. وبعث الطلائع فحبسوا النّاس ليسبقوا الأخبار، فلمّا فرغوا أسرى إليهم آخر الليل، فعبر إليهم، فصبّحهم في أسواقهم، فوضع فيهم السيف فقتل. وأخذوا ما شاءوا، وقال المثنّى: لا تأخذوا إلاّ الذهب والفضّة، ولا تأخذوا من المتاع إلاّ ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابّته. وهرب أهل الأسواق، وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء والحُرّ من كلّ شيء. ثمّ خرج كارّاً حتى نزل بنهر السّيلحين بالأنبار؛ فنزل وخطب الناس، وقال: أيّها الناس، انزلوا وقضُوا أوطاركم، وتأهّبوا للسّير، واحمدوا الله وسلُوه العافية، ثمّ انكشفوا قبيضاً. ففعلوا، فسمع همساً فيما بينهم: ما أسرع القوم في طلبنا! فقال: تناجَوا بالبرّ والتقوى ولا تتناجوا بالإثم والعدوان، انظروا في الأمور وقدّروها ثمّ تكلّموا؛ إنّه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد؛ ولو بلغهم لحال الرُّعب بينهم

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١٣.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

وبين طلبكم. إن للغارات رَوْعات تنتشر عليها يوماً إلى الليل، ولو طلبكم المحامون من رأى العين ما أدركوكم؛ وأنتم على العراب حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم، ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين: التماس الأجر ورجاء النصر؛ فثِقوا وأحسنوا به الظنّ، فقد نصركم الله في مواطن كثيرة وهم أعدّ منكم. وسأخبركم عنّي وعن انكماشي والذي أريد بذلك؛ إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر أوصانا أن نقلّل العُرجة، ونسرع الكرّة في الغارات، ونسرع في غير ذلك الأوبَة. وأقبل بهم ومعهم أدلاّؤهم يقطعون بهم الصحارى والأنهار؛ حتى انتهى بهم إلى الأنبار؛ فاستقبلهم دهاقين الأنبار بالكرامة، واستبشروا بسلامته، وكان موعده الإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبّون.

كتب إليّ السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: لمّا رجع المثنّى من بغداد إلى الأنبار سرّح المُضارِب العجلي وزيداً إلى الكباث، وعليه فارس العُناب التغلبيّ. ثمّ خرج في آثارهم، فقدم الرّجلان الكباث، وقد ارفضّوا وأخلوا الكَباث، وكان أهله كلّهم من بني تغلب، فركبوا آثارهم يتبعونهم فأدركوا أخرياتهم وفارس العُناب يحميهم. فحماهم ساعة ثمّ هرب، وقتلوا في أخرياتهم وأكثروا، ورجع المثنّى إلى عسكره بالأنبار، والخليفة عليهم فُرات بن حيّان. فلمّا رجع المثنَّى إلى الأنبار سرّح فُرات بن حيّان وعُتيبة بن النَّهاس وأمرهما بالغارة على أحياء من تِغلب والنَّمِر بصفّين، ثمّ اتبعهما وخلّف عن الناس عمرو ابن أبي سُلمى الهُجَيميّ. فلمّا دنوا من صِفين، افترق المثنّى وفُرات وعُتيبة، وفرّ أهل صفّين وعبروا الفرات إلى الجزيرة، وتحصّنوا. وأرمل المثنّى وأصحابه من الزاد، حتى أقبلوا على رواحلهم إلاّ ما لا بدّ منه فأكلوها حتى أخفافها وعظامها وجلودها. ثمّ أدركوا عيراً من أهل دِياف وحَوران، فقتلوا العلوج وأصابوا ثلاثة نفر من بني تغلب خفراء، وأخذوا العِير؛ وكان ظهراً فاضلاً. وقال لهم: دلّوني، فقال أحدهم: آمنوني على أهلي ومالي، وأدلّكم على حيّ من تغلب غدوت من عندهم اليوم؛ فأمنه المثنّى وسار معه يومه، حتى إذا كان العشيّ هجم على القوم، فإذا النَّعَم صادرة عن الماء، وإذا القوم

جلوس بأفنية البيوت. فبثّ غارته، فقتلوا المقاتلة، وسبوا الذريّة؛ واستاقوا الأموال، وإذا هم بنو ذي الرُويحلة؛ فاشترى مَن كان بين المسلمين من ربيعة السَّبايا بنصيبه من الفيء، وأعتقوا سبْيَهم. وكانت ربيعة لا تُسبَى إذ العرب يتسابَوْن في جاهليتهم.

وأخبر المثنّى أن جمهور مَنْ سلك البلاد قد انتجعوا الشَّطّ؛ شاطىء دِجلة، فخرج المثنّى، وعلى مقدّمته في غزواته هذه بعد البُوَيب كلّها حُذيفة بن محصن الغلفانيّ، وعلى مجنّبتيه النُّعمان بن عوف ابن النعمان ومطر الشيبانيان. فسرّح في أدبارهم حُذيفة واتّبعه؛ فأدركوهم بتكريب دُوينَها من حيث طلبوهم يخوضون الماء، فأصابوا ما شاءوا من النّعَم، حتى أصاب الرجل خمساً من النَّعم، وخمساً من السَّبي، وخُمس المال. وجاء به حتى ينزل على الناس بالأنبار؛ وقد مضى فُرات وعُتيبة في وجوههما؛ حتى أغاروا على صِفّين وبها النَّمِر وتغلب متساندين، فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء، فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم، وجعلوا ينادونهم: الغرق الغرق! وجعل عُتيبة وفرات يذمُرون النّاس، وينادونهم: تغريق بتحريق - يذكرونهم يوماً من أيّامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غَيضة من الغياض - ثمّ انكفؤوا راجعين إلى المثنى، وقد غرّقوهم.

ولمّا تراجع الناس إلى عسكرهم بالأنبار وتوافَى بها البعوث والسرايا، انحدر بهم المثنى إلى الحيرة، فنزل بها. وكانت تكون لعمر رحمه الله العيون في كلّ جيش، فكتب إلى عمر بما كان في تلك الغزاة. وبلغه الذي قاله عتيبة وفُرات يوم بني تغلِب والماء؛ فبعث إليهما فسألهما، فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه أنه مَثَل، وإنهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذَحْل الجاهليّة. فاستحلفهما، فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلاّ المثل وإعزاز الإسلام فصدّقهما وردهما حتى قدما على المثنى».

وهكذا عاد المثنى إلى الأنبار ومنها إلى الحيرة حيث أخرج الخمس من غنائم تلك الغارات وأرسلها إلي الخليفة، وقسّم الباقي على المقاتلين.



الفصل السابع
التحضيرات الميدانية لمعركة القادسية

كان لغارات المثنى التي ذكرناها في الفصل السابق أبلغ الأثر في نفوس المسلمين الذين شعروا بتفوّقهم رغم قلّة عددهم، وفي نفوس الفرس الذين عرفوا الخطر الحقيقي الذي يشكّله المسلمون وشعروا بأن سببه الأكبر هو الخلاف بين أهل الحكم الفارسي.

أولاً – الوضع في فارس

بعد هزيمة البويب اجتمع أهل الرأي في فارس وتوجهوا إلى رستم والفيرزان باللوم كون خلافاتهما قد أوهنت الجيش الفارسي وأضعفته.

نقل ابن الأثير الوضع في فارس خلال هذه الحقبة، فكتب:(١)

«لمّا رأى أهل فارس ما يفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم والفيرزان وهما على أهل فارس: [أين يذهب بكم؟] لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهّنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوّهم. ولم يبلغ من أمركما أن نقرّكما على هذا الرأي، وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد، وساباط، وتكريت إلا المدائن. والله لتجتمعان أو لَنَنْدَأَنَّ بكما [قبل أن يشمت بنا شامت]، ثمّ نهلك وقد أشتفينا منكما.

فقال الفيزران ورستم لبوران ابنة كسرى: اكتبي لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ففعلت، [ثمّ

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٩٤ – ٢٩٥.

أخرجت ذلك إليهم في كتاب] فأحضروهن جميعهن وأخذوهن بالعذاب يستدلونهن على ذَكَر من أبناء كَسرى فلم يوجد عند واحدة منهن أحد. وقال بعضهن: لم يبق إلاّ غلامٌ يُدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادوريا.

فأرسلوا إليها وطلبوه منها وكانت قد أنزلته أيام شيري حين جمعهن، [في القصر الأبيض] فقتل الذكور وأرسلته إلى أخواله، فلمّا سألوها عنه دلتهم عليه فجاءوا به فملّكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة. واجتمعوا عليه فاطمأنّت فارس واستوثقته وتبارى المرازبة في طاعته ومعونته فسمى الجنود لكلّ مسلحة وثغر، فسمى جند الحيرة والأبلة، والأنبار وغير ذلك».

وهكذا، ملّك رستم والفيرزان أحد أبناء كسرى ويدعى «يزدجرد» وهو ابن إحدى وعشرين سنة وتباروا في خدمته ورأوا في ذلك مخرجاً من أزمتهم.

كتب ابن خلدون يصف حال فارس أيضاً: (١)

«ولمّا دهم أهل فارس من المسلمين بالسواد ما دهمهم وهم مختلفون بين رستم والفيرزان واجتمع عظماؤهم وقالوا لهما: إما أن تجتمعا وإلا فنحن لكما حرب فقد عرّضتمونا للهَلَكة، وما بعد بغداد وتكريت إلى المدائن فأطاعا لذلك. وفزعوا إلى بوران يسألونها في ولد من آل كسرى يولّونه عليهم، فأحضرت لهم النساء والسراري وبسطوا عليهن العذاب، فذكروا لهم غلاماً من ولد شَهرَيار بن كسرى اسمه يَزْدَجُرْد، أخذته أمه عندما قتل شيرويه أبناء أبيه. فسألوا أمه عنه فدلتهم عليه عند أخواله كانت أودعته عندهم حينئذ، فجاؤوا به ابن إحدى وعشرين سنة فملكوه واجتمعوا عليه.

وتبارى المرازبَة في طاعته وعيَّن المسالح والجنود لكلّ ثغر، ومنها الحيرة والأُبُلّة والأنبار، وخرجوا إليها من المدائن».

وبعد هذا التدبير، بدأ رستم يعدّ جيشه في المدائن لقتال المسلمين.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١٥.

ثانياً – وضع المسلمين

بلغت أخبار البلاط الفارسي إلى المثنى ابن حارثة الذي توقّع أن يقوم الفرس بتجهيز الجيوش الجرّارة لمهاجمة المناطق التي افتتحها المسلمون لإخراجهم منها. وكتب المثنى إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بالوضع الجديد.

كتب ابن خلدون عن ردّ فعل العرب على تحضيرات الفرس:[1]

وكتب المثنى بذلك إلى عمر، وبينما هو ينتظر الجواب انتقض أهل السواد وكفروا، وخرج المثنى إلى ذي قار ونزل الناس في عسكر واحد. ولما وصل كتابه إلى عمر قال والله لأضربَنّ ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي وشرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلاّ رماهم به. فرماهم بوجوه الناس بل وغررهم، وكتب إلى المُثنّى يأمره بخروج المسلمين من بين العجم والتفرق في المياه بحيالهم، وأن يدعو الفرسان وأهل النجدان من رَبيعة ومُضَرٍ ويحضرهم طوعاً وكرهاً، فنزل المسلمون بالجِلّ وسروا إلى عَصِيّ وهو جبل البصرة متناظرين.

وكتب إلى عماله على العرب أن يبعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي. وخرج إلى الحج؛ فحجّ سنة ثلاث عشرة ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة، ومن كان أقرب إلى العراق انضمّ إلى المثنى. فلما اجتمعت عنده أمراء العرب خرج من المدينة واستخلف عليها علياً، وعسكر على صرار من ضواحيها، وبعث على المقدّمة طلحة، وجعل على المَجْنَبَتَين عبد الرحمن والزُبَير وانبَهَم أمره على الناس ولم يُطق أحدٌ سؤاله، فسأله عثمان فأحضر الناس واستشارهم في المسير إلى العراق فقال العامة: سر نحن معك، فوافقهم ثمّ رجع إلى أصحاب رسول الله ﷺ وأحضر عَلِيّاً وطَلْحَة والزبير وعبد الرحمن واستشارهم فأشاروا بمقامه وأن يبعث رجلاً بعده آخر من الصحابة بالجنود، حتى يفتح الله على المسلمين ويُهلِكَ عدوهم، فقبل ذلك ورأى فيه الصواب.

---

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه،، ص ٩١٥ - ٩١٧.

وعين لذلك سعد ابن أبي وقّاص وكان على صدقات هوازن، فأحضره وولاّه حرب العراق. وأوصاه، وقال: يا سعد ابن أم سعد! لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله، الله لا يمحو السيء بالسيّء، ولكنه يمحو السيء بالحسن. وليس بين الله وبين أحد نسب إلاّ بطاعته، فالناس في دين الله سواء، الله ربّهم وهم عبّاده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه، وعليك بالصبر.

ثمّ سرّحه في أربعة آلاف ممّن اجتمع إليه، فيهم حَميضة بن النُعمان بن حَميضة على بارق، وعمرو بن مَعْديكرب وأبو سبرة ابن أبي رَهْمٍ على مَذْحج، ويزيد بن الحرث الصدائي على عُذْرَةَ وخبب، ومَسْلِيَةُ وبشير ابن عبدالله الهلاليّ على قَيْس عيلان، والحُصَينُ بن نُمَير ومعاوية بن خَديج على السكون وكِنْدَة. ثمّ أمره بعد خروجه بألفي يماني وألفي فخري.

وسار سعد وبلغه في طريقه بِزَرْوَدَ أن المُثنّى مات من جراحة انتقضت، وأنه استخلف على الناس بشير بن الخَصاصِيَة. وكانت جموع المثنى ثلاثة آلاف وكذلك أربعة آلاف من تميم والرباب، وأقاموا. وعمر ضرب على بني أسد أن ينزلوا على حد أرضهم، فنزلوا في ثلاثة آلاف وأقاموا بين سعد والمثنى، وسار سعد إلى سيراف فنزلها. واجتمعت إليه العساكر ولحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً».

ثالثاً – التحضيرات الميدانية الفارسية

كان رستم أكبر قادة الفرس وأكثرهم شأناً في قتال المسلمين، وكان يرى ضرورة التصدّي للمسلمين تباعاً وإرسال جيش فارسي وراء آخر لدحرهم، فيما كان يزدجرد يفضل التصدّي لهم في معركة واحدة كبيرة تخرجهم من سواد العراق. لذلك كان أول عمل قام به يزدجرد هو استنفار عمّاله على الولايات.(١)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٧٩ – ٣٨٠.

كتب الطبري عن هذا الاستنفار ما يأتي:(١)

«حدّثنا السريّ، عن شعيب، عن سَيف، عن محمّد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: كان أوّل ما عمل به عمر حين بلغه أنّ فارس قد ملّكوا يزدجرد، أن كتب إلى عُمّال العرب على الكُور والقبائل، وذلك في ذي الحجَّة سنة ثلاث عشرة مخرجَه إلى الحجّ، وحجّ سنواته كلّها: لا تدعوا أحداً له سلاح، أو فرس، أو نجدة، أو رأي إلا انتخبتموه، ثمّ وجّهتموه إليّ، والعَجَل العَجَل!

فمضت الرُّسل إلى مَن أرسلهم إليهم مخرجَه إلى الحجّ، ووافاه أهل هذا الضّرب من القبائل التي طُرُقها على مكّة والمدينة. فأمّا مَن كان من أهل المدينة على النِّصف ما بينه وبين العراق، فوافاه بالمدينة مرجِعَه من الحجّ. وأمّا مَن كان أسفل من ذلك فانضمّوا إلى المثنّى، فأمّا مَنْ وافى عمر فإنّهم خبروه عمّن وراءهم بالحثّ».

أما ابن كثير، فقد كان أكثر وضوحاً بالنسبة للخلاف في الرأي بين يزدجرد ورستم إذ كتب:(٢)

«فعجت رعايا الفرس من أطراف بلادهم إلى يزدجرد من الذين يلقون من المسلمين من النهب والسبي. وقالوا: إن لم تنجدونا وإلاّ أعطينا ما بأيدينا وسلمنا إليهم الحصون. واجتمع رأي الفرس على إرسال رستم إليهم، فبعث إليه يزدجرد فأمّره على الجيش. فاستعفى رستم من ذلك، وقال: إن هذا ليس برأي في الحرب، إن إرسال الجيوش بعد الجيوش أشد على العرب من أن يكسروا جيشاً كثيفاً مرّة واحدة. فأبى الملك إلاّ ذلك. فتجهز رستم للخروج. ثمّ بعث سعد كاشفاً إلى الحيرة وإلى صلوبا فأتاه الخبر بأن الملك قد أمر على الحرب رستم بن الفرخزاد الأرمني، وأمدّه بالعساكر».

وأذعن رستم لأمر يزدرجرد وقرّر أن يقود معركته ضد المسلمين بمنازلتهم في القادسية بجيش كبير في معركة فاصلة تخرجهم من العراق. وأخذ رستم يعد العدّة والرجال والسلاح في المدائن، ثمّ انتقل

(١) المرجع نفسه.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٧.

إلى ساباط تحضيراً للتوجه إلى القادسية مع علمه الأكيد أن خسارته فيها ستشكّل هزيمة للمملكة الساسانية، وقد تزيلها من الوجود.[1]

راح رستم يجمع الجيش الفارسي في ساباط حيث التحقت به فلول المنهزمين في المعارك السابقة. كما أعلن التعبئة العامة في جميع أنحاء بلاد فارس حتى بلغ جيشه بساباط مائة وعشرين ألف مقاتل.[2]

وصف ابن الأثير تحضيرات رستم للمعركة بتفصيل، فكتب:[3]

«وسار رستم من ساباط وجمع آلة الحرب وبعث على مقدّمته الجالينوس في أربعين ألفاً، وخرج هو في ستين ألفاً، وجعل في ميمنته الهرمزان، وعلى الميسرة مهران بن بهرام الرازي. وقال رستم للملك يشجعه بذلك: «إن فتح الله علينا توجّهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة». وكان خروج رستم من المدائن في ستين ألف متبوع، ومسيره عن ساباط في مائة وعشرين ألف متبوع، وقيل غير ذلك.

ولمّا فصل رستم عن ساباط كتب إلى أخيه البنذوان: «أمّا بعد فرموا حصونكم وأعدوا واستعدوا فكأنكم بالعرب قد [وردوا بلادكم] وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم. وقد كان من رأي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوساً، فإنّ السمكة قد كدّرت الماء، وإنّ النعائم قد حسنت والزهرة قد حسنت، واعتدل الميزان، وذهب بهرام. ولا أرى هولاء القوم إلاّ سيظهرون علينا، ويستولون على ما يلينا، وإنّ أشد ما رأيت أنّ الملك قال: «لتسيرن [إليهم] أو لأسيرنّ بنفسي».

ولقي جابان رستم على قنطرة ساباط، وكانا منجَمْين، فشكى إليه وقال له: ألا ترى ما أرى؟ فقال له رستم: «أما أنا فأقاد بخَشاش[4] وزمام ولا أجد بُداً من

(١)ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠٧.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٠٧ - ٣٠٩.
(٤) الخِشاش: ما يوضع في أنف البعير، وهو من خشب، ويريد أنه مسوق بقوة ومغلوب على ذلك ولو كان الأمر له لما أقدم عليه.

الانقياد». ثمّ سار فنزل بكُوثى[1] فأتى برجل من العرب فقال له: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ فقال: جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تُسْلِموا. قال رستم: فإن قُتِلْتُم قبل ذلك؟ قال: مَن قُتِل منا دخل الجنة ومَن بَقِي منا أنجزه الله ما وعده، فنحن على يقين. فقال رستم: وقد وُضعنا إذن في أيديكم. فقال: أعمالكم وضَعتكم فأسلَمَكُم الله بها فلا يغرنَّك من ترى حولك، فإنّك لست تجاول الإنس إنما تُجاولُ [القضاء و] القدر.

ثمّ سار رستم وقدم الجالينوس وذا الحاجب فنزل الجالينوس بحيال زهرة من دون القنطرة، ونزل ذو الحاجب بطيزنا باذ، ونزل رستم بالخرارة. ثمّ سار رستم فنزل بالقادسية، وكان بين مسيره من المدائن ووصوله القادسية أربعة أشهر لا يقدم رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا. وخاف أن يلقى ما لقي مَن قبله وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله ينهضه».

إذن، انطلق رستم من ساباط نحو القادسية في التعبئة التالية:

- في المقدمة: الجالينوس في أربعين ألفاً.
- في الميمنة: الهرمزان.
- في الميسرة: مهران.
- في الساقة: البيرزان في عشرين ألفاً.

وكان مع الجيش ستون فيلاً.

وبلغ رستم القادسية في التعبئة المذكورة، بعد أن كان نظم جهازاً للاتصال بينه وبين يزدجرد بوضع رجال يتصل واحدهما بالآخر بالصوت من القادسية إلى المدائن. كما أرسل مفرزة خيالة إلى المعبر الوحيد على النهر لمنع عبور المسلمين عليه، وهو القنطرة.

رابعاً – التحضيرات الميدانية الإسلامية

أوصى عمر المسلمين في قتالهم للفرس بالرأي الذي جاء به المثنى أن «لا تدخلوا بلاد فارس، قاتلوهم على حدود أرضهم باديء حجر من أرض العرب. فإن يظهر الله المسلمين، فلهم ما وراءهم وإلا رجعتم إلى

(١) كوثَى: ثلاث مواضع بسواد العراق بأرض بابل، وكوثى نهر بالعراق.

فئة، ثمّ تكونوا أعلم بسبيهم، واجرأ على أرضهم، إلى أن يرد الله الكرب».(١)

وتسلّم سعد الوصية بعد أن توفي المثنى متأثّراً بالجروح التي أصيب بها في موقعة الجسر.(٢)

من دراسة هذه الوصية نرى أن المسلمين كانوا، في البداية، يريدون لقاء الفرس على حدود أرضهم أي على الحدود الفاصلة بين شبه الجزيرة العربية والعراق، وعدم ترك العدو يستدرجهم إلى ترك مواضعهم مهما كلّف الأمر.

وأوصى الخليفة سعد بالسير قائلاً: «إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها؛ وتفرّقوا فيما حولها واندب من حولك منهم وانتخب أهل النجدة والرأي والقوّة والعدّة».(٣)

ثمّ كتب له لاحقاً:

«وإذا انتهيت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم، ولما يريدونه من تلك الأصل، وهو منزل رغيب خصيب حصين دون قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك على أنقابها... ثمّ الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسّوك أنغصتَهم ورَموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجْلهم وحدّهم وجِدّهم؛ فإن أنتم صبرتم لعدوّكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة؛ رجوت أن تُنصَروا عليهم. ثمّ لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلاّ أن يجتمعوا؛ وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم؛ فانصرفتم من أدنى مَدَرة من أرضهم إلى أدنى حَجَر من أرضكم. ثمّ كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبَن وبها أجهل؛ حتى يأتي الله بالفتح عليهم، ويردّ لكم الكرّة».(٤)

وهكذا يكون الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي أشار على سعد بن أبي وقاص باعتماد القادسية للمعركة الفاصلة.

أما عن أعداد المسلمين، فإن الخليفة كان قد أعلن التعبئة العامة وأرسل إلى

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١٨.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٨٤.
(٣) الطبري، المرجع نفسه، ص ٣٨٦.
(٤) المرجع نفسه.

رؤساء القبائل والعمال أن «يبعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي»،[1] وجعل كلاً من مكة والمدينة مركزي تجمّع للمقاتلين. ثمّ خرج إلى «صرار» بقرب المدينة حيث عسكر فيها.

وخرج سعد من «صرار» في أربعة آلاف مقاتل: ثلاثة من أهل اليمن والسراة، وألف من قيس عيلان.

كتب الطبري عن الاعداد التي التحقت بسعد:[2]

«كتب إليّ السريّ، عن شُعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة، عن ماهان، وزياد بإسناده، قالوا: وأمدّ عمر سعداً بعد خروجه بألفَيْ يمانيّ وألفي نجديّ مُؤدٍ عن غَطفان وسائر قَيس، فقدِم سعد زرُود في أوّل الشتاء، فنزلها وتفرّقت الجنود فيما حولها من أمواه بني تميم وأسد. وانتظر اجتماع الناس، وأمْر عمر، وانتخب من بني تميم والرِّباب أربعة آلاف؛ ثلاثة آلاف تميميّ وألف ربيّ؛ وانتخب من بني أسد ثلاثة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا على حدّ أرضهم بين الحزن والبسيطة، فأقاموا هنالك بين سَعْد بن أبي وقّاص وبين المثنّى بن حارثة. وكان المثنّى في ثمانية آلاف مِنْ ربيعة بستة آلاف من بكر بن وائل، وألفان من سائر ربيعة؛ أربعة آلاف ممّن كان انتخب بعد فصول خالد، وأربعة آلاف كانوا معه ممن بقي يوم الجسر. وكان معه من أهل اليمن ألفان من بجِيلة، وألفان من قُضاعة وطيئ ممن انتخبوا إلى ما كان قبل ذلك، من طيئ عديّ بن حاتم، وعلى قُضاعة عمرو بن وَبرَة، وعلى بَجِيلة جرير بن عبدالله؛ فبينا النّاس كذلك؛ سعد يرجو أن يقدم عليه المثنى، والمثنى يرجو أن يقدم عليه سعد، مات المثنى من جِراحته التي كان جُرحها يوم الجسر، انتقضت به؛ فاستخلف المثنّى على الناس بشير بن الخصاصيّة، وسعد يومئذٍ بزَرُود، ومع بشير يومئذ وجوه أهل العراق، ومع سعد وفود أهل العراق الّذين كانوا قدموا على عمر، منهم فُرات بن حيّان العِجْليّ وعتيبة، فردّهم مع سعد».

وهكذا، بلغت أعداد المسلمين الذين أصبحوا بأمرة سعد بن أبي وقاص تمهيداً لمعركة القادسية:

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٨٦.

- جند المثنى (مع خليفته بشير بن الخصاصية): ١٢ ألفاً

- جند سعد ١٧ ألفاً

- مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (من الشام) ٦ آلاف

أي مجموعه ٣٥ ألفاً

وفي إحدى رسائل الخليفة إلى سعد وردت تعليمات عسكرية تكتيكية إذ كتب له:(١)

«إذا جاءك كتابي هذا، فعَشِّر(٢) الناس، وعرِّف(٣) عليهم، وأمِّر(٤) على أجنادهم وعَبِّهم،(٥) ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا.(٦) وقدِّرهم وهم شهود، ثمّ وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القاسية. واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إلي بالذي يستقر عليه أمرهم».(٧)

وقد نفّذ سعد وصايا الخليفة وسار إلى القادسية على تعبئة كاملة وصفها ابن خلدون كما يلي:(٨)

«ثمّ عبأ سعد كتائب من سيراف وأمّر الأمراء، وعرّف على كلّ عشرة عريفاً، وجعل الرايات لأهل السابقة، ورتب المقدّمة والساقة والمجنبات والطلائع، وكلّ ذلك بأمر عمر ورأيه. وبعث في المقدّمة زُهرَة بن عبدالله بن قَتادَة الحَيوي من بني تميم، فانتهى إلى العُذيب، وعلى الميمنة عبدالله بن المعتر وعلى الميسرة شرحَبيل ابن السمط، وخليفة بن خالد بن عرفَطَة حليف بني عبد شمس، وعاصم بن عمر التميمي على الساقة وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة. ثمّ سار على التعبية

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٦.

(٢) عشر الناس: اجعلهم أعشاراً أعشاراً.

(٣) عرّف: اجعل عليهم عرفاء.

(٤) أمّر: عين الأمراء.

(٥) عبّهم: اجعلهم على تعبئة.

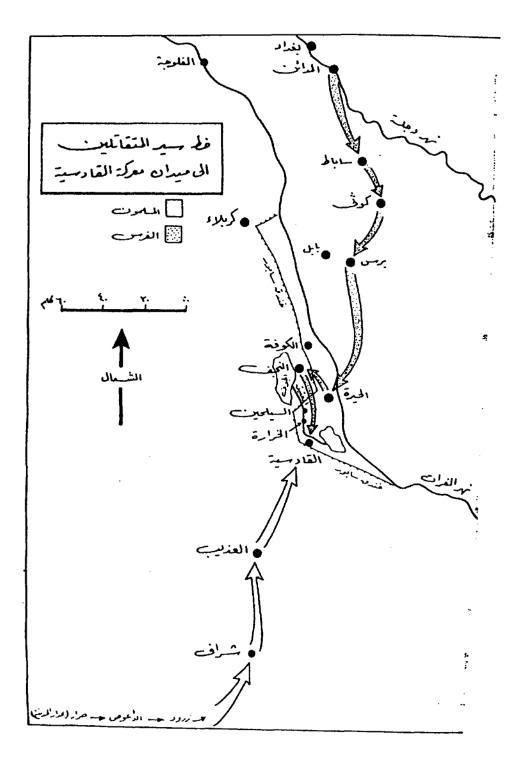
(٦) ليشهدوا: ليحضروا.

(٧) أنظر خط سير المقاتلين إلى القادسية.

(٨) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩١٨.

خارطة رقم ١٠

خط سير المتقاتلين إلى ميدان معركة القادسية



ولقيه المعنّى بن حارثة الشيباني بسيراف. وقد كان بعد موت أخيه المثنى سار بذي قار إلى قابوس بن المنذر بالقادسية. وقد بعثه الفرس إليها يستنفرون العرب، فبيّته المعنى واستلحمه ومن معه، ورجع إلى ذي قار».

أما الطبري، فكان أكثر تفصيلاً إذ كتب عن الموضوع نفسه، ما يلي:[1]

«فأمّا أمراء التعبية، فاستعمل زُهرة بن عبدالله بن قتادة بن الحوّية بن مرثَد بن معاوية بن معن بن مالك بن أرثم بن جُشَم ابن الحارث الأعرج. وكان ملك هَجَر قد سَوّده في الجاهليّة، ووفّده على النبيّ ﷺ، فقدّمه، ففصل بالمقدّمات بعد الإذن من شراف؛ حتى انتهى إلى العُذيْب. واستعمل على الميمنة عبدالله بن المعْتمّ، وكان من أصحاب النبيّ ﷺ؛ وكان أحد التّسعة الذين قدموا على النبيّ ﷺ، فتمّمهم طلحة ابن عبيدالله عشرة؛ فكانوا عِرافة. واستعمل على الميسرة شُرحبيل بن السِّمْط بن شُرحَبيل الكِنْدِيّ - وكان غلاماً شابّاً، وكان قد قاتل أهل الرّدّة، ووفّى الله، فعُرِف ذلك له. وكان قد غلب الأشعث على الشّرف فيما بين المدينة؛ إلى أن اختُطّت الكُوفة. وكان أبوه ممّن تقدّم إلى الشام مع أبي عبيدة بن الجراح. وجعل خليفته خالد بن عُرفطة، وجعل عاصم بن عمرو التميميّ ثم العمريّ على الساقة، وسواد بن مالك التميميّ على الطلائع، وسلْمان بن ربيعة الباهليّ على المجرّدة، وعلى الرّجْل، حَمال ابن مالك الأسديّ، وعلى الرّكبان عبدالله ابن ذي السهمين الخثعميّ. فكان أمراء التعبية يَلُون الأمير، والذين يلُون أمراء الأعشار، والذين يلُون أمراء الأعشار أصحاب الرايات، والذين يلُون أصحاب الرايات والقوّاد رؤوس القبائل. وقالوا جميعاً: لا يستعين أبو بكر في الرّدّة ولا على الأعاجم بمرتدّ، واستنفرهم عمر ولم يولّ منهم أحداً».

وهكذا نرى أن سعداً وضع على المقدّمة زهرة بن عبدالله، وفي الميمنة عبدالله بن المعتّم، وفي الميسرة شُرحبيل بن السمط الكندي، وعلى الساقة عاصماً بن عمرو التميمي، وعلى الطلائع سواداً بن مالك

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٨٥.

التميمي، وعلى الخيل سلمان بن ربيعة الباهلي، وعلى المشاة حمالاً بن مالك الأسدي، وعلى الظعن عبدالله بن ذي السهمين الخثعمي، وجعل خليفته خالد ابن عُرفطة، وللقضاء وقسمة الفيء عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، والداعية والرائد سلمان الفارسي.

أما الطريق المتبعة من صرار إلى القادسية فكانت:[1] صرار - الاعوص - زرود - شراف - العذيب - القادسية.

وبوصوله إلى القادسية حافظ سعد على تعبئته الكاملة فتمركز بجيشه على الضفة الشمالية لخندق سابور. وكان عبدالله بن المعتم على الميمنة، وشرحبيل على الميسرة، وعاصم بن عمرو وزهرة بن الحوية في القلب مع القائد العام. أما القنطرة، وهي المعبر الوحيد التي يمكن اجتياز النهر عبره، فقد أرسل سعد مفرزة من الخيالة لحمايتها ومنع الفرس من اجتيازها.

- غزوات تموينية:

اعتمد سعد طريقة تموين الجيش من المنطقة التي نزل فيها. لذلك راح يرسل السرايا إلى القرى والمناطق المجاورة للقادسية حيث كانت تصادر كلّ ما يقع في طريقها وذلك بهدف تأمين إطعام المقاتلين المسلمين.

من هذه السرايا سرية أرسلت إلى «النجاف» بقيادة سواد بن مالك التميمي فأغارت على البلدة فهرب أهلها وتركوا قطعانهم للمسلمين الذين استولوا عليها وعادوا بها إلى معسكرهم.[2]

ثمّ بعث سعد بسرية يقودها عمرو بن الحارث إلى «باب ثوراء»، فصادرت الكثير من المواشي. كما أرسل سرية إلى منازل بني تغلب والنمر فسبت النساء والأولاد واستولت على الماشية وعادت إلى القادسية.[3] وكانت هذه الغزوات تسمى بأسماء ما يصادر فيها مثل: يوم الأباقر نسبة إلى الأبقار الكثيرة التي غنمها

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٥٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٢١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠٧.

المسلمون، ويوم الحيتان (أي الأسماك)... الخ.

خامساً - المفاوضات التمهيدية للمعركة

وكعادة المسلمين، كتب الخليفة إلى سعد بن أبي وقاص بأن يبعث وفداً إلى الملك يزدجرد يدعوه إلى الإسلام أو دفع الجزية أو القتال، فنفّذ سعد ما طلب منه.

نقل ابن خلدون تفاصيل مقابلة وفد المسلمين الذي أرسله سعد إلى يزدجرد، فكتب:(١)

«فأرسل سعد نفراً منهم النعمان بن مقرّن وبشر بن أبي أدهم وجملة من حيوة وحنظلة ابن الربيع وعدي بن سهيل وعطارد ابن حاجب والحرث بن حسان والمغيرة بن زرارة والأشعث بن قيس وفرات بن حبان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة؛ فقدموا على يزدجرد وتركوا رستم، واجتمعوا بل واجتمع الناس ينظرون إليهم وإلى خيولهم وبرودهم.

فأحضرهم يزدجرد وقال لترجمانه: سلْهُم ما جاءكم وما أولعكم بغزونا وبلادنا؟ من أجل أنّا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا! فتكلم النُعمان بن مُقَرّن بعد أن استأذن أصحابه وقال ما معناه: إن الله رحمنا وأرسل إلينا رسولاً صفته كذا ويدعونا إلى كذا ووعدنا بكذا، فأجابه منا قوم وتباعد قوم. ثمّ أمر أن نجاهد من خالفه من العرب، فدخلوا معه على وجهين: مكره اغتبط وطائع ازداد حتى اجتمعنا عليه وعرفنا فضل ما جاء به. ثم أمرنا بجهاد من يلينا من الأمم ودعائهم إلى الانصاف، فإن أبيتم فأمر أهون من ذلك فهو الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة.

فقال يزدجرد: لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، وقد كان أهل الضواحي يكفوننا أمركم، ولا تطمعوا أن تقوموا للفرس. فإن كان بكم جهد أعطيناكم قوتاً وكسوناكم وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم. فقال المغيرة ابن زرارة: هؤلاء أشراف العرب ويستحيون

(١)ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٢٠ - ٩٢١.

من الأشراف، وأنا أكلمك وهم يشهدون. فأما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشدّ، ثمّ ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبيّ ﷺ مثلما قال النعمان الخ.

ثمّ قال له: اختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف وإلاّ فنجّ نفسك بالإسلام. فقال يزدجرد: لو قَتَل أحدٌ الرُسُل قبلي لقتلتكم. ثمّ استدعى بوقر من تراب وحمل على أعظمهم وقال: ارجعوا إلى صاحبكم واعلموه أني مرسل رستم حتى يدفنكم أجمعين في خندق القادسيّة، ثمّ يُدَوّخ بلادكم أعظم من تدويخ سابور. فقام عاصم ابن عمرو فحمل التراب على عنقه وقال: أنا أشرف هولاء. ولما رجع إلى سعد فقال: أبشر فقد أعطانا الله تراب أرضهم. وعجب رستم من محاورتهم، وأخبر يزدجرد بما قاله عاصم بن عمر، فبعث في أثرهم إلى الحيرة فأعجزوهم».

وذكر البلاذري هذه المقابلة باختصار، فكتب:[1]

«وكتب عمر إلى سعد يأمره بأن يبعث إلى عظيم الفرس قوماً يدعونه إلى الإسلام. فوجّه عمرو بن مَعدي كرب الزُّبيديّ، والأشعَثَ بن قَيس الكندي في جماعة، فمرّوا برستم فأُتي بهم فقال: أين تريدون. قالوا: صاحبكم. فجرى بينهم كلام كثير حتّى قالوا: إنّ نبيّنا قد وعدنا أن نغلب على أرضكم. فدعا بزبيل من تراب، فقال: هذا لكم من أرضنا. فقام عمرو بن معدي كرب مبادراً فبسط رداءه وأخذ من ذلك التراب فيه وانصرف. فقيل له ما دعاك إلى ما صنعت قال: تفاءلت بأنّ أرضهم تصير إلينا ونغلب عليها. ثمّ أتوا الملك ودعوه إلى الإسلام فغضب، وأمرهم بالانصراف وقال: ولولا أنّكم رسل لقتلتكم. وكتب إلى رستم يعنّفه على إنفاذهم إليه».

كما جرت مفاوضات مع رستم قادها المغيرة بن شعبة الذي طلب منه إما اعتناق الاسلام أو دفع الجزية أو القتال. ولم تؤدِ هذه المفاوضات إلى نتيجة، لذلك اتجه الجانبان إلى حلّ الخلاف بينهما بالسيف، وهذا ما حصل.

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٥٩.



الفصل الثامن
معركة القادسية

«الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى، لا سيما بالعنف».

هذا المبدأ الاستراتيجي طبّقه المسلمون والفرس في معركة القادسيّة. فبعد وصول المسلمين إلى القادسية وتمركزهم فيها وقيامهم بالغزوات التموينية التي ذكرناها في الفصل السابق.

فبعد تمركز الجيش الإسلامي في القادسية سار الجيش الفارسي بقيادة رستم نحوها. وقدّم رستم الجالينوس وذا الحاجب فنزل الجالينوس مقابل زهرة وذو الحاجب بطيزباد ورستم بالخرارة. وكان رستم يأمل أن يضجر المسلمون فينصرفون دون قتال.(١)

وكان ابن خلدون، وغيره من المؤرّخين، قد ذكروا أن رستم، الذي كان يمارس أعمال التنجيم ويؤمن بها، قد رأى حلماً فسّره بانهزام الفرس في المعركة المقبلة. كتب ابن خلدون عن هذا الموضوع:(٢)

«وكان رأى في منامه كأنّ ملكاً نزل من السماء ومعه النبي ﷺ وعمر، وأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثمّ دفعه إلى النبيّ ﷺ ودفعه النبيّ إلى عمر فحزن لذلك أهل فارس في سيره. ولما وصل القادسية وقف على العُتَيْق حيال عسكر المسلمين، والناس يتلاحقون حتى اغتمّوا من كثرتهم».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠٩.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٢٣.

وبعد أن جرت مفاوضات بين وفد من المسلمين وكلّ من الملك يزدجرد ورستم لم تودِ إلى نتيجة إيجابية، أصبحت الحرب لا مفرّ منها. وستجري هذه الحرب في القادسية.

أولاً – أرض المعركة[١]

كتب الخليفة إلى سعد بن أبي وقاص يوصيه بالنزول في القادسية. «وهي، كتب الطبري، منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر، وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك على انقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر، على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع بينهما. ثمّ الزم مكانك فلا تبرحه».[٢]

ثمّ كتب إليه قائلاً:[٣]

«واكتب إليه بجميع أحوالكم وتفاصيلها، وكيف تنزلون وأين يكون منكم عدوّكم، واجعلني بكتبك إليّ كأني أنظر إليكم، واجعلني من أمركم على الجلية...».

فكتب إليه سعد يصف له كيفية تلك المنازل والأراضي بحيث كأنه يشاهدها».[٤]

ومما قال له: «أن القادسية بين الخندق والعتيق، وأن عن يسار القادسية بحرا خضر في جوف لاحّ إلى الحيرة بين طريقين؛ فأما أحدهما فعلى الظَّهر، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الحُضوض؛ يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة. وما عن يمين القادسية إلى الولجة فيضٌ من فيوض مياههم. وإنّ جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي أَلبٌ لأهل فارس قد خفّوا لهم واستعدوا لنا...».[٥]

(١) انظر خريطة موقع القادسية.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٨٦.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٦.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) الخندق يعني خندق سابور.

- العتيق أي نهر العتيق

أجابه الخليفة:[١]

«أقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك، واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم، فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله».

ومن هذه الرسائل يتبيّن أن ميدان القتال يقع بين نهر العتيق شمالاً وخندق سابور جنوباً (انظر الخريطة). وهو محاط، من اليمين بمنخفضات من الأرض سببتها فيضانات نهر الفرات. أما عن اليسار فيقع منخفض الجوف وهو فيض آخر من مياه النهر، تنتهي جنوباً بالولجة.

لذلك فإن ميدان القتال محصور بين النهر وفيضاناته والخندق. ولنهر العتيق معبر واحد يقع إلى الشمال الغربي واسمه «القنطرة» عمل كلّ من الخصمين على حمايتها من جهته لمنع عبور خصمه إليه.

أما الخندق الذي هو عبارة عن قناة ري يمكن اجتيازها من أماكن عدّة، فيوجد في وسطه حصن قديم يدعى «حصن قُديس» اعتمده سعد مركزاً لقيادته العامة يشرف منه على المعركة.

ثانياً – ترتيب الجيوش استعداداً للمعركة

كان سعد قد اختار، بعد التشاور مع الخليفة، مكان المعركة؛ فيكون قد أحسن تطبيق إحدى قواعد الحرب وهو «اختيار المكان». وتمركز جيش المسلمين مستنداً إلى خندق سابور،[٢] وذلك بالشكل التالي:

- الخيالة في الطليعة.
- ثمّ رماة النبال.
- ثم المشاة.
- ثمّ الإبل والظعن.

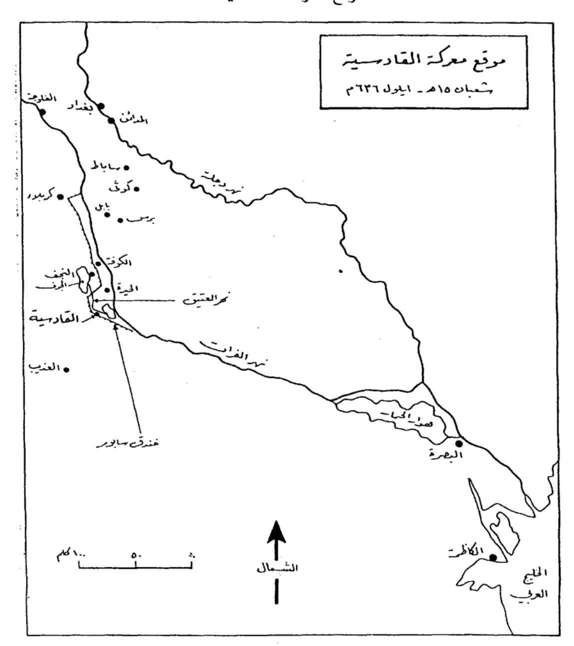
ومدّ سعد جيشه ليساوي في الجبهة جيش الفرس (أي مسافة ميل)، وأرسل فرقة من الخيالة لحماية ممر القنطرة.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٨٧.

(٢) انظر الخريطة: ميدان القتال.

خارطة رقم ١١

موقع معركة القادسية



المرجع: العميد سويد: «الفن العسكري الإسلامي» - ص ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٨٨.

أما ترتيب الجيش فكان كما يأتي:[١]

- القلب: زهرة بن الحويّة وعاصم بن عمرو التميمي ومعهما قبائل تميم وكنانة وأسد والرّباب من بكر بن وائل.
- الميمنة: عبدالله بن المعتّم ومعه قبائل قيس عيلان وقضاعة وطيئ وعبد قيس وبعض من بكر بن وائل.
- الميسرة: شرحبيل بن السمط الكندي ومعه قبائل بجُيلة ونخع وكندة والأزد وهمذان وخثعم وغيرها.
- الطلائع: سواد بن مالك.
- المؤخرة: عبدالله بن السهمي الخثغمي.
- مركز سعد بن أبي وقاص: في القلب في حصن قُديس.

وفي كلّ من الميمنة والميسرة والقلب كانت الخيالة في الصف الأول يليها رماة النبال ثمّ الرجّالة.

وعلى الجانب الفارسي، عبر رستم نهر العتيق الذي أصبح وراءه فيما القوات الاسلامية أمامه. وهكذا ارتكب رستم خطأً استراتيجياً تاريخياً حدّد مصير جيشه وامبراطوريته، إذ أصبح جيشه محصوراً بين جيش المسلمين من الأمام ونهر العتيق من الوراء. وهكذا أساء تطبيق المبدأ الثاني من مبادىء الحرب أي «حرية العمل».[٢] وهذا ما كان عمرو ابن العاص قد حذّر منه يوم اليرموك إذ قال:

«حصرت والله الروم، وقلّما جاء محصور بخير».

أمّا ترتيب الجيش الفارسي فكان كالآتي:[٣]

- في الميمنة: الجالينوس والهرمزان ومعهما أربعون ألفاً وثمانية أفيال.

---

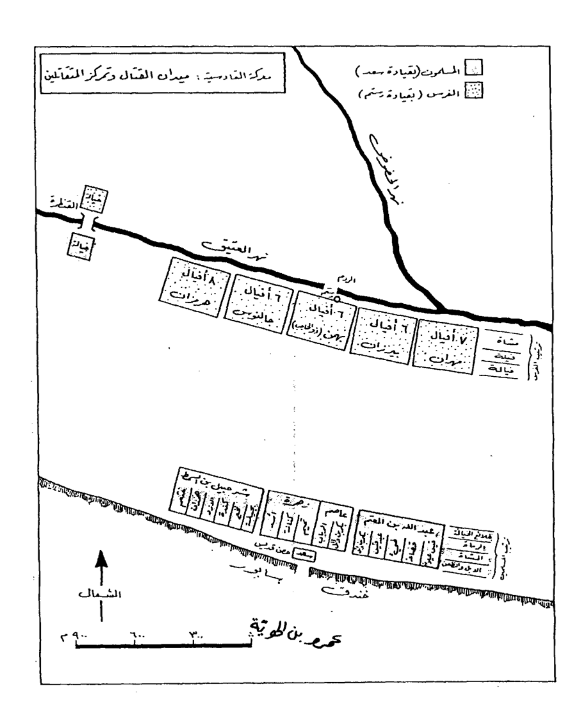
(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩٩ - انظر الخريطة.

(٢) مبادىء الحرب ثلاثة: - الأول: نسبية الأهداف للوسائل.
- الثاني: حرية العمل.
- الثالث: الحصيل الأقصى للوسائل.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩٩.

خارطة رقم ١٢

ميدان القتال وتمركز المقاتلين



- في الميسرة: البيرزان مع مهران ومعهما أربعون ألفاً مع سبعة أو ثمانية أفيال.
- في القلب: ذو الحاجب ومعه أربعون ألفاً وثمانية عشر فيلاً.

وفي كلّ من هذه القوى جاء ترتيب الجند كالآتي:

- الخيالة في المقدّمة، تليها الفيلة ثمّ الرجّالة.

وأرسل رستم فرقة من الخيالة إلى معبر القنطرة وكلّفها بحراسته ومنع اجتيازه من قبل المسلمين. ونصبت لرستم مظلة استظلّ بها على سريره لمراقبة المعركة.

جرت مفاوضات قبل بدء القتال بين رستم والمسلمين الذين ظلوا على مبدئهم القائل بإحدى ثلاث: إما الإسلام أو الجزية أو القتال، لكنها لم تعطِ نتيجة إيجابية.

ثالثاً – المعركة

سجل ابن الأثير والطبري معركة القادسية في أحداث السنة الرابعة عشرة للهجرة،[١] كذلك صنفها أيضاً ابن كثير.[٢]

أما البلاذري فقد ذكر في فتوح البلدان أن يوم القادسية كان في آخر السنة ١٦هـ».[٣] ابن خلدون من جهته ذكر أن وقعة القادسية جرت في المحرم من السنة أربع عشرة للهجرة.[٤]

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن المعركة جرت في أوائل المحرم سنة أربع عشرة للهجرة، واستمرّت أياماً أربعة دعي كلّ يوم باسمٍ وفق معناه:[٥]

اليوم الأول: يوم ارماث، من رمث الأمر أي اختلط. وسبب هذه التسمية أن

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٨١، ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٩٩.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٥.
(٣) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٥٨.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٢٨.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٧ - ٣٣٣.
والطبري، مرجع سابق، جزء٢ ، ص ٤٠٦ - ٤٢٦.

المقاتلين اختلطوا ببعضهم اختلاطاً كبيراً. وسميت الليلة التي جاءت بعد هذا اليوم ليلة الهدأة كونها كانت هادئة.

اليوم الثاني: يوم أغواث من الغوث أو العون كون المسلمين استقدموا قوات جديدة التحقت بالقتال وكانت قادمة من الشام.

اليوم الثالث: يوم عماس، من فعل عمس أي أظلم. وسمي هذا اليوم كذلك كونه كان مظلماً. أما الليلة التي تلت فسميت ليلة الهرير لكثرة ما سمع فيها من أصوات الأسلحة. كتب ابن الأثير: «قيل: إنما سميت بذلك لتركهم الكلام، إنما كانوا يهرون هريراً».(1)

اليوم الرابع: يوم القادسية أو يوم النصر.

أما تفاصيل ما جرى في كلّ يوم فسنذكره في هذا الفصل.

أ - يوم أرماث:(2)

قبل البدء بالقتال تابعت التحضيرات التي وصفها ابن الأثير فكتب:(3)

«لما عَبر الفرس العتيق جلس رستم على سريره وضرب عليه طيارة. وعبّى في القلب ثمانية عشر فيلاً عليها صناديق ورجال، وفي المجنبتين ثمانية أو سبعة. وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته والفيرزان بينه وبين ميسرته [وبقيت القنطرة بين الخيلين].

وكان يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالاً على كلّ دعوة رجلاً أوّلهم على باب إيوانه وآخرهم مع رستم. فكلّما فعل رستم شيئاً قال الذي معه للذي يليه: كان كذا وكذا، ثمّ يقول الثاني ذلك للذي يليه. وهكذا إلى أن ينتهي إلى يزدجرد في أسرع وقت.

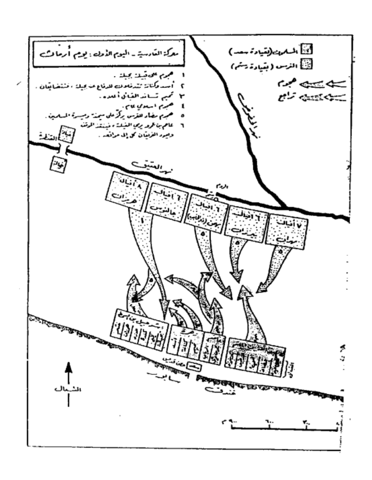
وأخذ المسلمون مصافّهم، وكان بسعد دَمَامِيل وعِرق النسا فلا يستطيع الجلوس

(1) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٢٨.
وابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٤٢.
(2) انظر خريطة يوم أرماث.
(3) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣١٧ - ٣١٨.

خارطة رقم ١٣

معركة القادسية

اليوم الأول: يوم أرماث



١ - هجوم على قبيلة بجيلة.

٢ - أسد وكنانة تتدخلان للدفاع عن بجيلة، فتتضايقان.

٣ - تميم تساند القبائل أعلاه.

٤ - هجوم إسلامي عام.

٥ - هجوم مضاد للفرس يركّز على ميمنة وميسرة المسلمين.

٦ - عاصم بن عمرو يرمي الفيلة، فينقذ الموقف ويعود الفريقان كلّ إلى مواقعه.

إنما هو مُكبّ على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس.

ونزل سعد إلى الناس فاعتذر إليهم وأراهم ما به من القروح في فخذيه وإليتيه فعذره الناس وعلموا حاله. ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عُرفطة على الناس فاختلف عليه فأخذ نفراً ممن شغب عليه فحبسهم في القصر، منهم أبو محجن الثقفي وقيّدهم، وقيل: بل كان حبس أبي محجن بسبب الخمر. وأعلم الناس أنه قد استخلف خالداً وإنما يأمرهم خالد فسمعوا وأطاعوا. وخطب الناس يومئذ، وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة وحثهم على الجهاد وذكّرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس، وكذلك فعل أمير كلّ قوم. وأرسل سعد نفراً من ذوي الرأي والنجدة، منهم المغيرة وحذيفة، وعاصم، وطليحة، وقيس الأسدي، وغالب، وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم، ومن الشعراء الشماخ، والحطيئة، وأوس بن مغراء، وعبدة بن الطبيب وغيرهم، وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا.

وكان صف المشركين على شفير العتيق، وكان صف المسلمين مع حائط قديس والخندق، فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق ومع الفرس ثلاثون ألف مسلسل. وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد، وهي الأنفال، فلما قُرِئت هشّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها.

فلما فرغ القراء منها قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تُصَلّوا الظهر، فإذا صليتم فإنّي مكبرٌ تكبيرة فكبروا واستعدوا. فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم. ثمّ إذا كبّرت الثالثة فكبروا لينشط فرسانكم الناس. فإذا كبّرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوّكم وقولوا: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

فلما كبّر سعد الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال وخرج إليهم من الفرس أمثالهم فاعتروا الطعن والضرب».

الطبري، من جهته، وصف بداية القتال في يوم أرماث، فكتب:[(١)]

«كتب إليّ السريّ بن يحيى، عن شعيب، عن سيف، عن حلاّم عن مسعود

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٠ - ٤١٢.

ابن خراش، قال: كان صفّ المشركين على شفير العتيق، وكان صفّ المسلمين مع حائط قُدَيس، الخندق من ورائهم. فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق. ومعهم ثلاثون ألف مسلسل، وثلاثون فيلاً تُقاتل، وفِيلة عليها الملوك وقوف لا تُقاتِل. وأمر سعد النّاس أن يقرؤوا على الناس سورة الجهاد، وكانوا يتعلّمونها.

وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: قال سعد: الزموا مواقفكم، لا تحرّكوا شيئاً حتى تصلّوا الظهر، فإذا صلّيتم الظهر فإنّي مكبّر تكبيرةً، فكبّروا واستعدّوا. واعلموا أنّ التّكبير لم يُعْطَه أحدٌ قبلكم، واعلموا أنّما أعطيتموه تأييداً لكم. ثمّ إذا سمعتم الثانية فكبّروا، ولتُستَتَم عُدّتكم، ثمّ إذا كبّرت الثالثة فكبِّروا، ولينشّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا، فإذا كبّرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوّكم؛ وقولوا: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله!

قالوا: لما فرغ القُرّاء كبَّر سعد، فكبّر الذين يلَونه تكبيرة، وكبّر بعض الناس بتكبير بعض، فتحشحش الناس. ثمّ ثنّى فاستتمّ الناس، ثمّ ثلّث فبرز أهل النَّجدات فأنشبوا القتال، وخرج من أهل فارس أمثالهم، فاعتوروا الطّعن والضرب، وخرج غالب بن عبدالله الأسديّ.

فخرج إليه هُرْمُز - وكان من ملوك الباب، وكان متوّجاً - فأسره غالب أسراً، فجاء سعداً، فأدخل، وانصرف غالب إلى المطاردة. وخرج عاصم بن عمرو فطارد رجلاً من أهل فارس، فهرب منه واتبعه، حتى إذا خالط صفّهم التقى بفارس معه بغله، فترك الفارس البغل، واعتصم بأصحابه فحموْه. واستاق عاصم البغل والرَّحْل، حتى أفضى به إلى الصفّ، فإذا هو خبّاز الملك وإذا الّذي معه لَطَفُ الملك الأخبصة والعسل المعقود، فأتى به سعداً، ورجع إلى موقفه. فلمّا نظر فيه سعد، قال: انطلقوا به إلى أهل موقفه، وقال: إنّ الأمير قد نفّلكم هذا فكلّوه، فنفّلهم إياه. قالوا: وبينا الناس ينتظرون التكبيرة الرابعة، إذ قام صاحب رجّالة بني نهد قيس بن حِذيَم بن جُرثومة، فقال: يا بني نَهْد انهدوا، إنما سمِّيتم نَهْداً لتفعلوا. فبعث إليه خالد بن

عُرفُطة: والله لتكُفّن أو لأولين عملك غيرك. فكَفّ.

ولمّا تطاردت الخيل والفُرسان خرج رجلٌ من القوم ينادي: مَرد ومَرد، فانتدب له عمرو بن معديكرب وهو بحياله، فبارزه فاعتنقه، ثمّ جلَد به الأرض فذبحه، ثمّ التفت إلى النّاس، فقال: إن الفارسيّ إذا فقد قوسه فإنما هو تَيْس. ثمّ تكتّبت الكتائب من هؤلاء وهؤلاء.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: مرّ بنا عمرو بن معد يكرب وهو يحضّض الناس بين الصّفين، وهو يقول: إنّ الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقى مِزراقه، فإنّما هو تيْس. فبينا هو كذلك يحرّضنا إذ خرج إليه رجلٌ من الأعاجم، فوقف بين الصفّين فرمى بنُشّابة، فما أخطأت سِيَة قوسِه وهو متنكّبها، فالتفت إليه فحمل عليه، فاعتنقه، ثمّ أخذ بمنطقَته، فاحتمله فوضعه بين يديه، فجاء به حتى إذا دنا منّا كسر عنقَه، ثمّ وضع سيفه على حَلقه فذبحه، ثمّ ألقاه. ثمّ قال: هكذا فاصنعوا بهم! فقلنا: يا أبا ثَور، مَن يستطيع أن يصنع كما تصنع!

وقال بعضهم غير إسماعيل: وأخذ سوارَيه ومنطقته ويلمَق ديباج عليه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم؛ أنّ الأعاجم وجّهت إلى الوجه الذي فيه بَجيلة ثلاثة عشر فيلاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: كانت - يعني وقعة القادسيّة - في المحرّم سنة أربع عشرة في أوله. وكان قد خرج من الناس إليهم، فقال له أهل فارس: أحِلْنا، فأحالهم على بجِيلة، فصرفوا إليهم ستّة عشر فيلاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة وزياد قالوا: لمّا تكتّبت الكتائب بعد الطِّراد حمل أصحاب الفيَلة عليهم ففرّقت بين الكتائب، فابذعرت الخيل؛ فكادت بَجيلة أن تؤكل؛ فرّت عنها خيلُها نِفاراً، وعمّن كان معهم في مواقفهم، وبقيت الرجّالة من أهل المواقف. فأرسل سعد إلى بني أسد: ذبّبوا عن بجيلة ومن

لافّها من الناس؛ فخرج طُلَيحة بن خُويلد وحَمّال بن مالك وغالب بن عبدالله والرِّبِّيل ابن عمرو في كتائبهم، فباشروا الفيَلة حتى عدلها ركبانها؛ وإنّ على كلّ فيل عشرين رجلاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد بن قيس، عن موسى بن طريف، أن طُليحة قام في قومه حين استصرخهم سعد، فقال: يا عشيرتاه؛ إنّ المنوَّه باسمه، الموثوق به، وإنّ هذا لو علم أنّ أحداً أحقّ بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم؛ ابتدئوهم الشَّدّة، وأقدموا عليهم إقدام الليُوث الحَربة؛ فإنّما سمِّيتم أَسَداً لتفعلوا فعله؛ شدّوا ولا تصدّوا، وكرُّوا ولا تفرُّوا، لله دُرّ ربيعة! أي فَريّ يَفْرون! وأيَّ قِرْن يُغنون! هل يوصَل إلى مواقفهم! فأغنوا عن مواقفكم أعانكم الله! شدّوا عليهم باسم الله. فقال المَعْرور بن سوَيْد وشَقيق: فشدّوا والله عليهم فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفيلة عنهم؛ فأخّرت، وخرج إلى طُليْحة عظيم منهم فبارزه؛ فما لبّثه طليحة أن قتله.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمّد وطلحة وزياد، قالوا: وقام الأشعث بن قيس فقال: يا معشر كنْدة؛ لله درُّ بني أسد! أيّ فَريّ يفرُون! وأيّ هَذّ يَهُذّون عن موقفهم منذ اليوم. أغنى كلّ قوم ما يليهم؛ وأنتم تنتظرون مَن يكفيكم البأس! أشهد ما أحسنتم أسوَة قومكم العرب منذ اليوم، وإنهم ليُقتلون ويقاتلون؛ وأنتم جثاةٌ على الرُّكب تنظرون! فوثب إليه عدد منهم عشرة؛ فقالوا: عثّر الله جدَّك! إنّك لتؤبِّسنا جاهداً، ونحن أحسن الناس موقفاً! فمن أين خذلْنا قومنا العرب وأسأنا إسوتهم! فها نحن معك. فنهد ونَهدوا، فأزالوا الّذين بإزائهم. فلمّا رأى أهل فارس ما تلقى الفيلة من كتيبة أسد رمَوهم بحدّهم، وبدر المسلمين الشّدة عليهم ذو الحاجب والجالينوس، والمسلمون ينتظرون التّكبيرة الرابعة من سعد. فاجتمعت حَلْبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة، وقد ثبتوا لهم؛ وقد كبّر سعد الرّابعة، فزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسَد. وحملت الفيول على الميمنة والميسرة على الخيول؛ فكانت الخيول تُحْجِم عنها

وتَحيد، وتلحّ فرسانهم على الرّجل يشمّسون بالخيل. فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو، فقال: يا معشر بني تميم؛ ألستم أصحاب الإبل والخيل! أما عندكم لهذه الفيَلة من حيلة! قالوا: بلى والله. ثمّ نادى في رجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة، فقال لهم: يا معشر الرماة ذبّوا ركبان الفِيلة عنهم بالنّبل، وقال: يا معشر أهل الثقافة استدبِروا الفِيلة فقَطّعُوا وُضنها. وخرج يحميهم والرّحى تدور على أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد؛ وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة، فأخذوا بأذنابها وذباذب توابيتها، فقطعوا وضُنها. وارتفع عُواؤهم؛ فما بقي لهم يومئذ فيل إلاّ أعرِيَ، وقُتل أصحابها، وتقابل الناس ونُفّس عن أسد، وردّوا فارس عنهم إلى مواقفهم؛ فاقتتلوا حتى غربت الشمس. ثمّ حتى ذهبت هداة من الليل؛ ثمّ رجع هؤلاء وهؤلاء؛ وأصيب من أسد تلك العشيّة خمسمائة؛ وكانوا ردءاً للنّاس. وكان عاصم عادية النّاس وحاميتهم؛ وهذا يومها الأول وهو يوم أرماث».

وإذا اختصرنا ما جاء به الطبري وابن الأثير لقلنا أن القتال بدأ بعد صلاة الظهر بمبارزات فردية تغلّب خلالها المقاتلون المسلمون على الفرس. أمّا أبرز المبارزين فهم: عمرو بن معد يكرب وعاصم بن عمرو وطليحة بن خويلد الأسدي وغالب بن عبدالله الأسدي.

تلا المبارزات الافرادية هجوم فارسي عام صمد العرب خلاله. ثمّ وجه الفرس ثلاثة عشر فيلاً مع مواكبتهم نحو قبيلة بجيلة على الميسرة. ومع تراجع بجيلة أعطي الأمر بمؤازرتها من قبيلتي أسد وتميم، فدارت معركة بالغة العنف حملت خلالها كلّ الفيلة ومواكباتها على المسلمين الذين كادت الدائرة تدور عليهم.

طريقة التخلّص من الفيلة:

– أمر عاصم بن عمرو رماة النبال برماية الفيلة بالنبال ففعلوا. هاجت الفيلة وانفصلت عن خيّالة الفرس، إلا أنها عادت فارتدّت لمهاجمة بني أسد وكادت تفتك بهم. وحملت الفيلة على ميمنة المسلمين وميسرتهم، فراحت خيول المسلمين تفرّ من أمامها، فأصبح على المسلمين التخلّص من الفيلة كي لا يخسروا المعركة.

عندها طلب سعد من عاصم بن عمرو أن يجد طريقة للتخلّص من الفيلة. وعندما لم تعطِ طريقة رميها بالنبال النتيجة المتوخّاة، أمر عاصم مقاتليه أن يقطعوا أحزمة أسرجة الفيلة ففعلوا، ففرت الفيلة من ميدان المعركة ملقية حمولة صناديقها من رجال الفرس أرضاً حيث فتك بهم المسلمون. علاوة على ذلك، داست الفيلة أثناء فرارها من اعترض طريقها من رجّالة الفرس.

واستمرّ القتال في هذا اليوم حتى غروب الشمس حتى قتل من قبيلة أسد خمسمائة مقاتل. وتراجع الجيشان للاستراحة خلال الليلة التي سميت «ليلة الهدأة» بسبب هدوئها.

ب - يوم أغواث:(١)

كتب ابن خلدون عن يوم اغواث:(٢)

«ولمّا أصبح سعد دفن القتلى وأسلم الجرحى إلى نساءٍ يقمن عليهم. وإذا بنواحي الخيل طالعة من الشام، كان عمر بعد فتح دمشق عزل خالد بن الوليد عن جند العراق، وأمر أبا عبيدة أن يؤمّر عليهم هاشم بن عُتْبَة يردّهم إلى العراق. فخرج بهم هاشم وعلى مقدّمَته القعقاع بن عمرو، فقدّم القعقاع على الناس صبيحة ذلك اليوم وهو يوم أغواث. وقد عهد إلى أصحابه أن يقطعوا أعشاراً بين كلّ عشرين مدّ البصر وكانوا ألفاً. فسلّم على الناس وبشّرهم بالجنود وحرضهم على القتال.

وطلب البراز فخرج إليه ذو الحاجب فعرفه القعقاع ونادى بالثأر لأصحاب الجسر، وتضاربا فقتله القعقاع وسرّ الناس بقتله، ووهنت الأعاجم لذلك. ثمّ طلب البراز، فخرج إليه الفيرزان والبندوان. وأكثر المسلمون القتل في الفرس وأخذوا الفيلة عن القتال لأن نوابتها تكسّرت بالأمس، فاستأنفوا عملها. وجلّل القعقاع إبلاً وجعل عليها البراقع، وأركبها عشرة عشرة، وأطاف عليها الخيول تحميها، وحملها على خيل

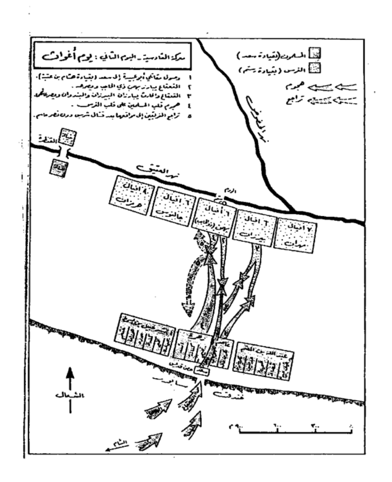
(١) انظر خريطة يوم أغواث.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٣٠ - ٩٣١.

خارطة رقم ١٤

معركة القادسية

اليوم الثاني: يوم أغواث



١ - وصول مقاتلي أبي عبيدة إلى سعد (بقيادة هشام بن عتبة).

٢ - القعقاع يبارز بهمن ذا الحاجب ويصرعه.

٣ - القعقاع والحارث يبارزان البيرزان والبندوان ويصرعاهما.

٤ - هجوم قلب المسلمين على قلب الفرس.

٥ - تراجع الفريقين إلى مواقعهما بعد قتال شرس دون نصر حاسم.

الفرس فنفرت منها، وركبتهم خيول المسلمين. ولقي الفرس من الإبل أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة. وبرز القعقاع يومئذ في ثلاثين فارساً في ثلاثين حملة فقتلهم، كان آخرهم بزرَجَمهَر الهمداني. وبارز الأعور بن قطنة شَهرَيار سِجِسْتان فقتل كلّ واحد منهما طاحبه».

أما ابن الأثير، فأكمل رواية ابن خلدون، فكتب:(١)

«وحمل رجل من تميم [ممن كان يحمي العشرة يقال له سواد] على «رستم» يريد قتله فقُتل دونه. وخرج رجل من فارس يبارز فبرز إليه الأعراف بن الأعلم العقيلي فقتله. ثمّ برز إليه آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوا سلاحه فغبّر في وجوههم التراب حتى رجع إلى أصحابه.

وقاتلت الفرسان إلى انتصاف النهار، فلما اعتدل النهار وتزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل، فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة، وليلة أغواث تدعى السواد.

ولم يزل المسلمون يرون يوم أغواث الظفر، وقتلوا فيه عامة أعلامهم، وجالت فيه خيل القلب، وثبت رجلهم. فلولا أنّ خيلهم عادت أُخِذ رستم أخْذاً. وبات الناس على [مثل] ما بات عليه القوم ليلة أرماث، ولم يزل المسلمون ينتمون،(٢) [لدن أمسوا حتى تفايأوا]. فلما سمع سعد ذلك قال لبعض من عنده: إن تمّ الناس على الانتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء [على عدوهم]، وإن سكتوا ولم ينتمِ الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء، فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني فإنّ انتماءهم من السوء».

وباختصار، أصبح المسلمون في يوم أغواث على تعبئة فيما بقيت فيلة الفرس خارج المعركة بسبب قطع أحزمتها وتحطم صناديقها. وهكذا بدأ القتال بين الفريقين متكافئاً، إلى أن بدأت طلائع جيش الشام تصل بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ومعه ستة آلاف مقاتل، خمسة من ربيعة ومضر، وألف من الحجاز.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) ينتمون: ينتسبون إلى قبيلتهم.

طليعة جيش الشام وعددها ألف مقاتل وصلت بقيادة القعقاع بن عمرو الذي قسّمها أعشاراً، أي مائة عشرة. ثمّ راح يرسلها عشرة إثر عشرة، قاد بنفسه أول عشرة. لذلك ظهرت هذه الكتيبة وكأنها مئات مثلها.

وجرت مبارزات إفرادية كان بطلها القعقاع وربحها المسلمون الذين تأججت حماستهم للقتال، فيما تزعزعت حمية الفرس وبدأوا يتراجعون عن ساحة القتال.

أما حيلة برقعة الإبل التي جاء بها القعقاع والتي ذكرها ابن خلدون فقد أجفلت خيول الفرس التي فرّت من المعركة وأوقعت عن ظهورها الرجال. وظلّ القتال سجالاً بين الجهتين حتى مساء يوم أغواث، واستمرّ حتى منتصف الليل، لذلك سميت تلك الليلة «ليلة السواد» لأن الجند اختلطوا ببعضهم فلم يعد من الممكن التمييز بينهم.

روى الطبري رواية عن مقاتل عربي اسمه أبو محجن كان سعد قد سجنه لسبب ما، فاحتال حتى تخلّص من سجنه ونزل ساحة المعركة حيث قتل كثيرين. كتب الطبري عن هذا الحدث:[1]

«فقالوا: ولما اشتدّ القتال بالسواد، وكان أبو محجن قد حُبس وقُيّد، فهو في القصر، فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله، فزبره وردّه. فنزل، فأتى سلمى بنت خصفة، فقال: يا سلمى يا بنت آل خَصَفة؛ هل لكِ إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال تخلّين عنّي وتُعيرينني البَلقاء؛ فلله عليّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قَيْدي.

فقالت سلمى: إنّي استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقَته. وقالت: أمّا الفَرس فلا أعيرها؛ ورجعت إلى بيتها. فاقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها؛ ثمّ دبّ عليها؛ حتى إذا كان بحيال الميمنة كبّر، ثمّ حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصّفّين؛ فقالوا: بسرجها، وقال سعيد والقاسم، عُرْياً. ثمّ رجع من خلف المسلمين

(١) الطبري مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٦ - ٤١٧.

إلى الميسرة فكبّر وحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصّفّين برمحه وسلاحه. ثمّ رجع من خلْف المسلمين إلى القلب فندر أمام النّاس، فحمل على القوم يلعب بين الصّفين برمحه وسلاحه. وكان يقصف الناس ليلتئذٍ قصفاً منكراً. وتعجّب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه من النّهار، فقال بعضهم: أوائل أصحاب هاشم أو هاشم نفسه. وجعل سعد يقول وهو مُشرف على النّاس مُكِبّ من فوق القصر: والله لولا مَحبس أبي محْجَن لقلت: هذا أبو محِجَن وهذه البلقاء! وقال بعض الناس: إن كان الخَضِر يشهد الحروب فنظنّ صاحب البلقاء الخَضِر. وقال بعضهم: لولا أنّ الملائكة لا تُباشِر القتال لقلنا: مَلَكٌ يثبّتنا؛ ولا يذكره الناس ولا يأبهون له؛ لأنه بات في محبسه. فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجَن حتى دخل من حيث خرج؛ ووضع عن نفسه وعن دابته، وأعاد رجلَيه في قيديْه.

فقالت له سلمى: يا أبا مِحْجن، في أيّ شيء حبسك هذا الرجل؟ قال: أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني، يبعثه على شفتي أحياناً، فيُساء لذلك ثنائي.

ولم تزل سلمى مغاضبة لسعد عشيّة أرماث، وليلة الهدأة، وليلة السواد؛ حتى إذا أصبحت أتته وصالحته وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن، فدعا به فأطلقه وقال: إذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، قال: لا جَرَم؛ والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً».

وهكذا عاد المسلمون والفرس، عند منتصف الليل، كلّ إلى معسكره من دون أن يتمكّن أي منهما من النصر على الآخر.

ج - يوم عماس (أو عماسي):[١]

جاءت رواية ابن الأثير للقتال في يوم عماس مفصلة وواضحة إذ كتب:[٢]

(١) انظر خريطة يوم أعماس.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٦ - ٣٢٨.

«ثمّ أصبحوا اليوم الثالث وهم على مواقفهم، وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان من جريح وميت؛ ومن المشركين عشرة آلاف، فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء. وكان النساء والصبيان يحفرون القبور، وكان على الشهداء حاجب بن زيد.

وأما قتلى المشركين فبين الصفين لم ينقلوا، وكان ذلك مما قوّى المسلمين. وبات القعقاع تلك الليلة يسرّب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه [من الأمس] وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فإن جاء هاشم فذاك وإلاّ جددتم للناس رجاءً وجِداً.

[ففعلوا] ولا يشعر به أحد، وأصبح الناس على مواقفهم. فلما ذر قرنُ الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبّر وكبر المسلمون [وقالوا: جاء المدد، وقد كان عاصم بن عمرو أمر أن يصنع مثلها فجاؤوا من قِبَل خفا]. وتقدّموا وتكتبت الكتائب، واختلفوا الضرب والطعن والمدد متتابع، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم فأخبر بما صنع القعقاع فعبى أصحابه سبعين سبعين. وكان فيهم قيس بن هبيرة بن عبد يغوث المعروف بقيس بن المكشوح المرادي، ولم يكن من أهل الأيام إنما كان باليرموك. فانتدب مع هاشم حتى إذا خالط القلب كبّر وكبر المسلمون؛ [وقد أخذوا مصافهم]، وقال هاشم: أول قتال المطاردة، ثمّ المراماة، ثمّ حمل على المشركين يقاتلهم حتى خرق صفهم إلى العتيق ثمّ عاد.

وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيتهم حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم. وأقبلت الرجالة مع الفيلة يحمونها أن تقطع وضنها، ومع الرجالة فرسان يحمونهم [إذا أرادوا كتيبة دلفوا لها بفيل وأتباعه لينفروا بهم خيلهم]، فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأنّ الفيل إذا كان وحده كان أوحش وإذا أطافوا به كان آنس. [فكان القتال كذلك حتى عدل النهار]. وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديداً، العرب والعجم فيه سواء، ولا تكون بينهم نقطة إلاّ أبلغوها يزدجرد بالأصوات فيبعث إليهم أهل النجدات ممن [بقي] عنده، [فيقوون بهم]. فلولا أنّ الله ألهم القعقاع ما فعل في

اليومين [وأتاح لهم بهاشم] وإلاّ كُسِر ذلك المسلمين.

وقاتل قيس بن المكشوح وكان قد قدم مع هاشم قتالاً شديداً وحرّض أصحابه. وقال عمرو بن معد يكرب: إنّي حامل على الفيل ومن حوله لفيل بإزائهم فلا تَدَعُوني أكثر من جزر جزور. فإن تأخّرتم عني فقدتم أبا ثور يعني نفسه، وأين لكم مثل أبي ثور. [فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيد].

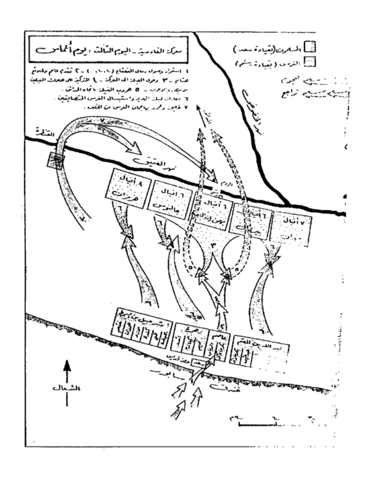
فحمل وضرب فيهم حتى ستره الغبار. وحمل أصحابه فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه[1] وإنّ سيفه لفي يده يصارمهم وقد طُعن فرسه فأخذ بِرجل فرس أعجمي فلم يطق الجري فنزل عنه صاحبه إلى أصحابه وركبه عمرو. وبرز فارسي فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له: شبر بن علقمة وكان قصيراً فترجّل الفارسي إليه فاحتمله وجلس على صدره ثمّ أخذ سيفه ليذبحه - ومقود فرسه مشدود في منطقته - فلمّا سلّ سيفه نفر الفرس فجذبه المقود فقلبه عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثني عشر ألفاً.

فلمّا رأى سعد الفيول قد فرّقت بين الكتائب وعادت لفعلها [يوم أرماث]، أرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو: اكفياني الأبيض، وكانت كلّها آلفة له وكان بإزائهما. وقال لحمال، والزبيل: اكفياني «الأجرب»، وكان بازائهما. فأخذ القعقاع وعاصم رمحين [أصمّين لينين] وتقدّما في خيل ورجل، وفعل حمال، والزبيل بمثل فعلهما [فلما خالطوهما اكتنفوهما فنظر كلّ واحدٍ منهما يمنة ويسرة وهما يريدان أن يتخبطا]. فحمل القعقاع وعاصم [والفيل متشاغل بمن حوله] فوضعا رمحيهما في عيني الفيل الأبيض، فنفض رأسه فطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا مَن كان عليه. وحمل حمال، والزبيل الأسديان على الفيل الآخر [وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه] فطعنه حمال في عينه فأقعى ثم استوى. وضربه الزبيل فأبان مشفره وبصر به سائسه فبقر أنفه وجبينه

---

(١) صرعوه: أي صرعوا فرسه.

خارطة رقم ١٥
معركة القادسية
اليوم الثالث: يوم عماس



١ - استمرار وصول رجال القعقاع (١٠ - ١٠).
٢ - تقدّم عاصم وطلائع هشام.
٣ - دخول الفيلة إلى المعركة.
٤ - التركيز على هلاك الفيلين.
٥ - هرب الفيلة باتجاه المدائن.
٦ - معارك ليلة الهرير واستبسال الفرس المتضايقين.
٧ - طليحة وعمرو يهاجمان الفرس من الخلف.

بالطبرزين فأفلت الزبيل جريحاً. فبقي الفيل جريحاً متحيراً بين الصفين كلّما جاء صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المشركين نخسوه. وولى الفيل وكان يدعى «الأجرب» وقد عوّر حمال عينيه فألقى نفسه في العتيق فاتّبعته الفيلة فخرقت صف الأعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها.

فلمّا ذهبت الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل، تزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا وهم على السواء، فلما أمسى الناس اشتدّ القتال وصبر الفريقان فخرجا على السواء».

إذن، بطل هذا اليوم كان القعقاع بن عمرو الذي جاء بحيلة تكتيكية إذ قسّم رجاله إلى مئات وبدأت هذه الوحدات تدخل ساحة المعركة مائة إثر مائة، مما عزّز معنويات المسلمين وزرع الخوف في نفوس الفرس الذين اعتبروا ذلك مدداً جديدة.

واقتدى هاشم بن عتبة بالقعقاع.

أما طريقة التخلّص من الفيلة ففيها الكثير من الجرأة والإقدام. وكانت الفيلة يترأسها الفيلان «الأبيض» و«الأجرب»، وكانت قد دخلت المعركة مجدداً بعد إصلاح صناديقها، وتقدّمت نحو القتال وحولها الخيالة والرجالة للدفاع عنها وعدم السماح للمسلمين بقطع أحزمتها. لذلك كان القتال في هذا اليوم من أشد الأيام ضراوة وعنفاً واستمرّ سجالاً.

وكان الفرس قد اتبعوا تكتيكاً جديداً مع الفيلة يقضي بإطلاق كلّ فيل مع مواكبته من الخيالة والرجالة على كلٍّ من كتائب المسلمين لتنفير خيولهم. وبالفعل فتكت الفيلة بصفوف المسلمين وفرقت كتائبهم رغم أن الخيول لم تنفر منها لتعوّدها على وجودها في القتال.

أدرك سعد بن أبي وقاص أنه لا مجال لقهر الفرس قبل القضاء على فيلتهم، فاستشار بعض من أسلم من الفرس عن طريقة القضاء على الفيلة، فأشاروا إلى «المشافر والعيون».[١] لذلك قرّر سعد

(١) المشافر أي الخراطيم – الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٩.

معالجة الفيلين الأبيض والأجرب كون باقي الفيلة تتبعهما.

١ - الانتهاء من الفيلين الأبيض والأجرب:

أمر سعد القعقاع وأخيه عاصم بأن: «اكفياني الأبيض»، وأمر حمّال والربيل الأسديين بأن: «اكفياني الاجرب».[١]

أخذ كلّ من القعقاع وأخيه رمحاً ليناً، ومعهما الخيالة والمشاة، وأمرا من معهما أن يكتنفوا الفيل الأبيض ويتحايلوا عليه ليحيروه، ففعلوا. ثمّ رماه كلّ منهما بالرمح في إحدى عينيه ففقأهما، فدلّى الفيل خرطومه، فقطعه القعقاع بضربة سيف. وفعل الربيل وحمّال كذلك مع الفيل الأجرب.

انتفض الفيلان وانطلقا نحو النهر فاجتازاه نحو المدائن تتبعهما الفيلة الأخرى التي داست في طريقها مشاة الفرس وخيالتهم. ومن لم يمت هكذا، تناولته سيوف المسلمين.[٢]

وهكذا خسر الفرس مدرعات الجيش التي كانت تحميهم، فأمسوا متساوين مع المسلمين الذين ارتفعت معنوياتهم فحملوا عليهم حملة واحدة، لكن الفرس صمدوا لكثرة أعدادهم حتى حلول الظلام.

٢ - ليلة الهرير:

سميت ليلة الهرير لكثرة ما سمع فيها من صليل السيوف وضجيج الخيول، وقد استمرّ القتال طيلة الليل.

كتب ابن خلدون يصف القتال خلال الليل:[٣]

«وخلص المسلمون والفرس فاختلفوا على سواء إلى المساء، واقتتلوا بقية ليلتهم وتسمى ليلة الهرير. فأرسل سعد طليحة وعمر إلى مخاضة أسفل العسكر يقومون عليها خشية أن يؤتى المسلمون منها،

---

(١) الطبري المرجع نفسه، ص ٤٢٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٣٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٣٢ - ٩٣٣.

فتشاوروا أن يأتوا الأعاجم من خلفهم، فجاء طللحة وراء العسكر وكبّر. فارتاع أهل فارس فأغار عمر أسفل المخاضة ورجع، وزاحفهم الناس دون إذن سعد. وأول من زاحفهم من الناس دون إذن سعد زاحفهم القعقاع وقومه فحمل عليهم ثمّ حمل بنو أسد ثمّ البخع من بجيلة ثمّ كندة، وسعد يقول في كلّ واحدة اللهم اغفر لهم وانصرهم. وقد كان قال لهم إذا كبرت ثلاثاً فاحملوا، فلما كبّر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضاً بعد صلاة العشاء، واختلطوا وصليل الحديد كصوت القرن إلى الصباح.

وركدت الحرب وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم. وأقبل سعد على الدعاء وسمع نصف الليل صوت القعقاع في جماعة من الرؤساء إلى رستم، حتى خالطوا صفّه مع الصبح، فحمل الناس من كلّ جبهة على من يليهم، واقتتلوا إلى قائم الظهيرة».

٣ - مباغتة الفرس من الوراء:

خلال الليل أمر سعد كلاً من طليحة بن معد يكرب وأخيه عمر أن يمنعوا الفرس من مباغتة المسلمين من الوراء من جهة القنطرة، فسار القائدان حتى وصلا إلى المخاضة المذكورة فلم يجدا أحداً من خيالة الفرس التي كانت تحرس المكان. فاجتازا القنطرة برجالهما وهاجما الفرس من الخلف حيث دارت معركة ليلية عنيفة لاسيما أن سعداً أنجدهما بسبعين مقاتلاً بقيادة قيس بن المكشوح.

كتب الطبري عن الحادثة هذه ما يأتي:(١)

«قال أبو جعفر: كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمّد بن قيس، عن عبد الرحمن بن جيش؛ أنّ سعداً بعث ليلة الهرير طُليحة وعمراً إلى مخاضة أسفل من العسكر ليقوما عليها خَشيَة أن يأتيه القوم منها؛ وقال لهما: إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم، وإن لم تجداهم علموا بها، فأقيما حتى يأتيكما

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٢١.

أمري – وكان عمر قد عهد إلى سعد ألاّ يولي رؤساء أهل الرِّدّة على مائة – فلما انتهيا إلى المخاضة فلم يريا فيها أحداً، قال طليحة: لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم! فقال عمرو: لا، بل نعبر أسفل؛ فقال طُليحة: إنّ الذي أقوله أنفع للناس. فقال عمرو: إنّك تدعوني إلى ما لا أطيق، فافترقا، فأخذ طليحة نحو العسكر من وراء العتيق وحده، وسفل عمرو بأصحابهما جميعاً، فأغاروا، وثارت بهم الأعاجم، وخَشي سعد منهما الّذي كان، فبعث قيس بن المكشوح في آثارهما في سبعين رجلاً، وكان من أولئك الرؤساء الذين نهى عنهم أن يوليهم المائة، وقال: إن لحقتهم فأنت عليهم. فخرج نحوهم، فلمّا كان عند المخاضة وجد القوم يكردون عمراً وأصحابه، فنهنه الناس عنه. وأقبل قيس على عمرو يلومه، فتلاحَيا، فقال أصحابه: إنّه قد أمِّر عليك؛ فسكت وقال: يتأمّر عليَّ رجل قد قاتلته في الجاهليّة عُمُرْ رجال! فرجع إلى العسكر. وأقبل طليحة حتى إذا كان بحيال السِّكْر، كبّر ثلاث تكبيرات؛ ثمّ ذهب، فطلبه القوم فلم يدروا أين سلك! وسفل حتى خاض، ثمّ أقبل إلى العسكر، فأتى سعداً فأخبره؛ فاشتدّ ذلك على المشركين، وفرح المسلمون وما يدرون ما هو!».

د - يوم القادسية أو يوم النصر:[1]

امتدّ القتال في اليوم الثالث طيلة الليل حتى الصباح حين بدأت إشارات الهزيمة تبدو على الفرس الذين اخترق المسلمون قلب جيشهم وكادوا أن يصلوا إلى قائدهم رستم.

وأخذت قبائل العرب تتنافس في القتال، وراح كلّ رئيس يقول لرجاله: «لا يكونن هؤلاء أجدّ في أمر الله منكم، ولا هؤلاء (يعني الفرس) اجرأ على الموت منكم».[2]

وعند الظهيرة اخترق المسلمون ميمنة الفرس وميسرتهم، فانكشف قلب الفرس

(١) انظر خريطة يوم القادسية.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٢٩.

أمام فرسان المسلمين فاندفعوا نحو رستم الذي حاول الفرار فاتجه نحو نهر العتيق فأدركه هلال بن علّفة،[1] فأخرجه من النهر وضربه بسيفه فقتله، فأخذ يصيح: «قتلت رستم ورب الكعبة، اليّ».

في الحقيقة، يورد البلاذري رواية أن «الله قتل رستم، فوجد بدنه مملوءاً ضرباً وطعناً، فلم يُعلم من قاتله... وقد قيل أن زهيراً بن عبد شمس البَجلي قتله، وقيل أيضاً أن قاتله عوّام بن عبد شمس، وقيل أن قاتله هلال ابن عُلَّفَه التيمي».[2]

أما لابن خلدون، فرواية مقتل رستم كالآتي:[3]

«وانفرج القلب وهبّت ريح عاصف فقلبت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق. وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير وقد قام رستم عنه فاستظلّ في ظل بغل فحمله، وضرب هلال بن علّفة الحمل، فوقع أحد العِدْلَين على رستم فكسر ظهره، وضربه هلال ضربةً نفحت مسكاً، وهرب نحو العتيق ورمى بنفسه فيه. فاقتحم هلال عليه وجرّه برجله فقتله وصعد السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة. إليّ! إليّ! فأطافوا به وكبّروا.

وقيل: إن هلالاً لما قصد رستم رماه بسهم فأثبت قدمه بالركاب، ثمّ حمل عليه فقتله واحتزّ رأسه ونادى في الناس قتلت رستم! فانهزم قلب المشركين».

ونقل الطبري رواية مشابهة مضيفاً عليها ما يأتي:[4]

«وقد قام رستم عن السرير حين طارت الريح بالطيّارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال يومئذ فهي واقفة، فاستظل في ظل بغل وحِمله، وضرب هلال بن عُلّفة الحمل الذي رستم تحته، فقطع حباله، ووقع عليه أحد العدلين، ولا يراه هلال ولا يشعر به، فأزال من ظهره فَقاراً، ويضربه ضربة فنفحت مِسكاً. ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه،

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٣٣.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٦١.

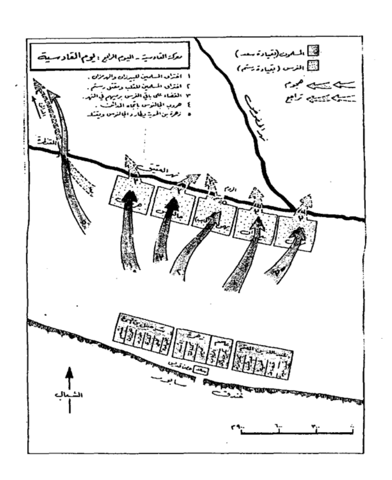
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٣٣.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٢٤.

خارطة رقم ١٦

معركة القادسية

اليوم الرابع: يوم القادسية



١ - اختراق المسلمين للبيرزان والهرمزان.

٢ - اختراق المسلمين للقلب ومقتل رستم.

٣ - القضاء على باقي الفرس برميهم في النهر.

٤ - هروب الجالنوس باتجاه المدائن.

٥ - زهرة بن الحوية يطارد الجالنوس ويقتله.

واقتحمه هلال عليه، فتناوله وقد عام؛ وهلال قائم، فأخذ برجله، ثمّ خرج به إلى الجُدّ، فضرب جبينه بالسيف، حتى قتله».

إنما، ومهما يكن من أمر رستم، فإن الفرس، عندما عرفوا بمقتل قائدهم، بدأوا ينهزمون وراحوا ينزلون النهر وهم مقيّدون بالسلاسل، فينهال التراب تحت أرجلهم ويسقطون في الماء ويغرقون، حتى قيل إنه غرق منهم في النهر في ذلك اليوم ثلاثون ألفاً. وقتل في المعركة في يوم القادسية عشرة آلاف، فيكون قتلى اليوم الأخير بلغ الأربعين ألفاً. أما عدد شهداء المسلمين فبلغ ثمانية آلاف وخمسماية دفنوا جميعهم في الخندق.

كتب ابن كثير يصف نهاية معركة القادسية:(١)

«فلما كان وقت الزوال من هذا اليوم ويسمى يوم القادسية، وكان يوم الاثنين من المحرَم سنة أربع عشرة كما قاله سيف بن عمر التميمي، هبت ريح شديدة فرفعت خيام الفرس عن أماكنها وألقت سرير رستم الذي هو منصوب له. فبادر فركب بغلته وهرب فأدركه المسلمون فقتلوه وقتلوا الجالينوس مقدم الطلائع القادسية، وانهزمت الفرس ولله الحمد والمنة عن بكرة أبيهم. ولحقهم المسلمون في أقفائهم فقتل يومئذ المسلمون بكمالهم وكانوا ثلاثين ألفاً وقتل في المعركة عشرة آلاف، وقتلوا قبل ذلك قريباً من ذلك. وقتل من المسلمين في هذا اليوم وما قبله من الأيام ألفان وخمسمائة رحمهم الله. وساق المسلمون خلف المنهزمين حتى دخلوا وراءهم مدينة الملك وهي المدائن التي فيها الإيوان الكسروي، وقد أذن لمن ذكرنا عليه، فكان منهم أكثر ما قدمنا. وقد غنم المسلمون من وقعة القادسية هذه من الأموال والسلاح ما لا يحد ولا يوصف كثرة، فحصلت الغنائم بعد صرف الأسلاب. وخمست وبعث بالخمس والشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد كان عمر رضي الله عنه يستخبر عن أمر القادسية كلّ من لقيه من الركبان، ويخرج من المدينة إلى

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٤٣.

ناحية العراق يتنشّق الخبر. فبينما هو ذات يوم من الأيام إذا هو براكب يلوح من بعد، فاستقبله عمر فاستخبره، فقال له: فتح الله على المسلمين بالقادسية وغنموا غنائم كثيرة، وجعل يحدثه وهو لا يعرف عمر وعمر ماش تحت راحلته. فلما اقتربا من المدينة جعل الناس يحيون عمر بالإمارة فعرف الرجل عمر فقال: يرحمك الله يا أمير المؤمنين هلا أعلمتني أنك الخليفة؟. فقال: لا حرج عليك يا أخي».

رابعاً – النتائج والدروس

أ – تعتبر القادسية من أبرز معارك الفتوحات الكبرى التي خاضتها الجيوش الإسلامية، لأسباب أهمها:

* دامت المعركة أربعة أيام فيما الوقعات الأخرى كانت تحسم في يوم واحد.
* تطلّب الوضع شجاعة نادرة ومثابرة على القتال من قبل المسلمين الذين كادوا يهزمون مرات عدة.
* أفاد الفرس من سلاح جديد في المعركة بالنسبة إلى المسلمين، وهو الفيلة. أما العرب المسلمون، فقد خاضوا صراعاً طويلاً ضد هذا السلاح الجديد أدى إلى إخراجه من المعركة.

ب – أبرزت هذه المعركة عبقرية عدد من القادة المسلمين الجدد مثل القعقاع بن عمرو وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة وقيس بن المكشوح وزهرة بن الحَويّة وغيرهم.

ج – أما النتائج التي جاءت بها هذه المعركة فهي أيضاً مهمة بالنسبة إلى الدولة العربية الناشئة إذ أنها ثبّتت أقدام المسلمين في العراق بعد أن سبق وثبّتتها في بلاد الشام معارك أخرى.

د – وكانت هذه المعركة إيذاناً بتصفية المملكة الساسانية وانتهاء عهد الأكاسرة وعبادة الأوثان في العراق وتحويل بلاد ما بين النهرين وشعوبها إلى الإسلام. كما أنها كانت إيذاناً بإكمال السيطرة الإسلامية على كامل منطقة الشرق الأدنى، وتمهيداً للتوجه نحو شمال افريقيا والأندلس.

فبعد القادسية فتحت أبواب العراق وبلاد فارس واستسلمت المدائن، عاصمة الفرس، للعرب المسلمين من دون قتال.

هـ - أما الدروس التي يمكن استخلاصها من المعركة فنوجزها بما يلي:

١ - كانت القادسية نموذجاً للتكتيك العسكري الإسلامي الذي يقضي بدخول المعركة تباعاً وبموجات عدّة من القبائل التي تجندها الدولة وترسلها إلى القتال والجهاد.

٢ - نستنتج من المعركة أيضاً أن تطوّراً بارزاً قد حصل للفن العسكري الإسلامي في الميادين التالية:

* التعبئة العامة والتجنيد الإلزامي والحشد الأقصى للوسائل.
* إختيار مكان المعركة، أي تأمين حرية العمل.
* دراسة أرض المعركة قبل خوضها، أي حسن استعمال الأرض.
* إستنزاف العدو باعتماد طريقة الغارات التموينية بهدف تأمين تغذية الجيش من المنطقة الموجود فيها.
* اعتماد أسلوب الكمائن، أي مباغتة العدو.
* اعتماد أسلوب التكتيك المتغيّر وفقاً لكلّ حال مثل مقاتلة الفيلة أو دخول المعركة بموجات متتابعة أو اكتناف العدو ومهاجمته من الوراء أو بَرْقَعَة الإبل كي تبدو كالفيلة، أو اختراق قلب الخصم وصولاً إلى قائده العام وقتله.
* التمايز بالقبائل أي إعطاء المعركة طابع التنافس القبلي في الجهاد في سبيل الدين.

و - وإذا قارنّا تفاصيل هذه المعركة مع مبادىء الحرب، لطلعنا بالحصلة التالية:

أن مبادىء الحرب ثلاثة:

١ - نسبية الأهداف للوسائل.

٢ - حرية العمل.

٣ - الحصيل الأقصى للوسائل.

فالمبدأ الأول لم يكن لصالح المسلمين إذ أن عديد عدوّهم كان يفوق عددهم بأضعاف. لكنهم استعاضوا عن ذلك بقيمة قادتهم وجندهم وحماسهم للقتال وصمودهم في المعركة وثباتهم فيها.

المبدأ الثاني، أي حرية العمل، كان مؤمناً للجانبين إذ أن مبادرات الهجوم جاءت من الخصمين.

أما الحصيل الأقصى للوسائل، فقد طبّق المسلمون هذا المبدأ أفضل تطبيق، إذ أن

سعداً أحسن إعطاء أوامره وفق مجرى المعركة. كما أنه أحسن استعمال أبطال جنده كالقعقاع وأخيه والربّيل وحمّال الذين كلّفوا بقتال الفيلين الأكبرين.

كذلك أحسن القعقاع إدخال مقاتليه الألف في المعركة فاستعملهم أفضل استعمال، إذ أن نتيجة دخول كلّ عشرة مقاتلين كانت تعادل نتيجة كتيبة بكاملها.

كما أن قوّة الصدم التي جاءت بها موجات المائة بعد المائة كانت تفوق بكثير قيمة المائة القتالية عامة.

إنما، ورغم كلّ ذلك، يبقى الحماس الديني والرغبة في نشر الرسالة والتضحية حتى الشهادة أهم العناصر التي ساهمت في انتصار المسلمين في هذه المعركة الفاصلة.

ملحق رقم ٢
سيرة سعد بن أبي وقّاص

سعد بن أبي وقاص، بطل معركة القادسية، هو سعد بن مالك، (وكنيته أبو وقاص)، بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب. هو نسيب النبيّ ﷺ، وفاخر به مرة إذ قال:

«هذا خالي فليرني امرؤ خاله».

وهو سابع سبعة سبقوا إلى الإسلام على يد أبي بكر الصدّيق، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وسادس رجل اختاره رسول الله ﷺ من بين ستة من الصحابة جعل الخلافة فيهم بعد موته.

وسعد هو من أشجع فرسان العرب وأكثرهم دقة في رمي النبال، وهو الذي قال النبي ﷺ له يوم أحد يحرضه على الرمي:

«ارمِ سعد ارمِ. فداك أبي وأمي».

وكان سعد قد اشتهر بحسن الرأي وهدوء الأعصاب ورباطة الجأش، لذلك كان يؤخذ برأيه عامة من قبل قريش إذ قلّما كان يخطىء في الحكم على الأمور.

قاد إحدى أول السرايا التي أرسلها النبيّ ﷺ إلى الخرّار في ثلاثين رجلاً، وذلك خلال السنة الأولى للهجرة،[١] ومهمتها اعتراض تجارة قريش.

أرسله النبيّ ﷺ خلال غزوة بدر الكبرى مع علي بن أبي طالب والزبير بن العوّام لاستطلاع ماء بدر حيث أسروا سقاة قريش. وكانت هذه العملية أول أعمال القتال في بدر.

---

(١) وقيل في بداية السنة الثانية للهجرة.

وشارك سعد في غالبية غزوات رسول الله ﷺ.

عيّنه الخليفة عمر قائداً عاماً للجيوش الإسلامية في العراق فأرسل رسولاً إلى نجد حيث كان سعد في هوازن لإبلاغه الأمر.

وانتصر سعد في القادسية التي كان له الدور الأساس في قيادة القوات الإسلامية فيها وتوجيه القبائل والقادة خلالها. فإذا درسنا وقائع معركة القادسية ودخلنا في تفاصيل تدخّلات القائد العام سعد بن أبي وقاص مع قادته، لعلمنا إلى أي مدى كان دوره مهماً فيها. فهو الذي ربحها بفضل إدارته الواعية لها وتوجيهاته الدائمة لقادته رغم مرضه وصعوبة تحرّكه.

لقد شهد كثير من المسلمين بجرأة سعد فقال فيه عثمان بن رجاء السعدي:

«كان سعد بن مالك أجرأ الناس وأشجعهم... فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه».[1]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٣٣.

الخاتمة
ما بعد معركة القادسية

اعتبرت معركة القادسية المدخل إلى العراق بالنسبة للمسلمين وبدء نهاية الامبراطورية الساسانية. لكن سقوط هذه الامبراطورية تطلّب أعواماً عدّة من الجهاد الإسلامي وخوض معارك جديدة سنتكلّم عنها في الجزء المقبل من هذه الموسوعة.

لكن ما يهمّنا إيضاحه في هذه الخاتمة هو مجرى الأمور بعد معركة القادسية، وخاصة مشكلة أهل السواد في العراق الذين ادّعوا وجود عهود بينهم وبين المسلمين في السابق، وقبل معركة القادسية، وأنهم لم ينقضوها. لذلك سنحاول إيجاز هذه المسألة كي نفهم مجرى أحداث العراق في ما بعد.

لقد وفّر الانتصار في القادسية غنائم كثيرة للعرب، منها أراضي سواد العراق، وفتح هذا الانتصار الطريق أمامهم نحو المدائن، فيما راحت فلول القوات الفارسية تنسحب أمام المقاتلين المسلمين بهدف إعادة تنظيم نفسها ووقف زحفهم نحو عاصمة فارس.

وخلال التصفية التي دامت أعواماً عدّة، تدفّق العرب من شبه الجزيرة العربية نحو العراق، حيث أقاموا معسكرات لقواتهم هناك أبرزها في البصرة والكوفة، وتحوّلت هذه المعسكرات بعدئذ إلى مدن ثابتة وكبيرة.

أما المشكلات التي برزت خلال الفتح فكانت أيضاً متعدّدة، منها ما تعلّق بالجند الذين قام الفتح على عواتقهم وحقوقهم من الأراضي التي استولوا عليها والتي كان على الدولة الإسلامية الناشئة استملاكها.

ومن المشكلات أيضاً قضايا إجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية نشأت لدى الشعوب المغلوبة، ومنها من هم من أصول عربية. فمعظم القبائل العربية التي كانت تدين بالنصرانية بقيت خلال معارك العراق موالية للامبراطورية الساسانية وتنكّرت لمعاهدات الصلح التي كان قد سبق وعقدت مع القادة العرب المسلمين خاصة خالد بن الوليد والمثنى. لكن بعض هذه القبائل حافظت على تلك العهود والمواثيق وقدّمت للمسلمين خدمات مختلفة خلال المعارك التي ساهمت في فتح العراق.

ومن المشكلات الاجتماعية التي جابهت سعداً بن أبي وقّاص بعد معركة القادسية قضية فقدان التوازن في بعض القبائل التي شاركت بالجهاد بين عدد النسوة وعدد الرجال، إذ زاد عدد النساء نسبة إلى الرجال بسبب فقدان المقاتلين بكثرة في المعركة.(١)

كتب الطبري عن وضع نساء بجيلة والنخع ما يأتي:(٢)

«كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عطيّة - وهو ابن الحارث - عمّن أدرك ذلك؛ قال: لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر امرأةً يوم القادسيّة من بَجِيلة والنّخع، وكان في النّخع سبعمائة امرأة فارغة، وفي بجيلة ألف. فصاهر هؤلاء ألفّ من أحياء العرب، وهؤلاء سبعمائة، وكانت النّخع تسمّى أصهار المهاجرين، وبجيلة. وإنّما جرّأهم على الانتقال بأثقالهم توطئة خالد، والمثنّى بعد خالد، وأبى عُبيد بعد المثنّى، وأهل الأيّام، فلاقوا بأساً بعد ذلك شديداً».

وحلّت هذه المشكلة بتعاون جميع المسلمين، فكان الحل الوحيد أن يتزوّج الرجال من أخوات الشهداء وبناتهم وأمهاتهم. وهكذا تزوّج رجال من المجاهدين بنساء الشهداء.

---

(١) ففي قبيلة بجيلة مثلاً، وجدت ألف امرأة دون رجال بعد معركة القادسية كما وجد في قبيلة النخل أيضاً سبعمائة امرأة دون زوج أو شقيق.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٣٣.

وعن مشكلة الشعوب المغلوبة ومطالباتها بتطبيق المعاهدات التي كانت عقدت معها سابقاً، كتب الطبري أيضاً:(١)

«كتب سعد كتاباً أرسله إلى عمر مع أنس ابن الحليس: إن قواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً، ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا، ولم يفِ به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أُلَيس الآخرة. وادعى أهل السّواد أن فارس اكرهوهم وحشروهم، فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الأرض».

ثمّ كتب سعد كتاباً آخراً مع أبي الهياج الأسدي جاء فيه:(٢)

«- إنّ أهل السّواد جلوا، فجاءنا من أمسك بعهده ولم يُجلب علينا؛ فتمّمنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم. وزعموا أنّ أهل السّواد قد لحقوا بالمدائن، فأحدث إلينا فيمن تمّ وفيمن جلا وفيمن ادّعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل، أو استسلم. فإنّا بأرض رغبية، والأرض خلاء من أهلها، وعددنا قليل، وقد كثر أهل صُلحنا؛ وإنّ أعمر لنا وأوهن لعدوّنا تألُّفهم».

فقام عمر في الناس فقال: «إنّه مَن يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظّه ولا يضرّ إلاّ نفسه، ومن يتّبع السُّنّة وينته إلى الشرائع، ويلزم السبيل النّهْج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة؛ أصاب أمره، وظفر بحظّه، وذلك بأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾،(٣) وقد ظفر أهل الأيّام والقوادس بما يليهم، وجلا أهله، وأتاهم مَن أقام على عهدهم. فما رأيكم فيمن زعم أنه استُكرِه وحُشر؛ وفيمن لم يدّع ذلك ولم يُقِم وجَلا، وفيمن أقام ولم يدّع شيئاً، ولم يجلُ، وفيمن استسلم».

فأجمعوا على أنّ الوفاء لمن أقام وكفّ لم يزده غَلبُه إلاّ خيراً، وأن من ادّعى فصُدّق أو وفى فبمنزلتهم، وإن كُذّب نُبذ إليهم وأعادوا صلحهم، وأن يُجعل أمر من جلا إليهم، فإن شاءوا وادعوهم وكانوا لهم ذمّة، وإن شاءوا

---

(١) الطبري، المرجع نفسه، جزء ٢، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الكهف: من الاية ٤٩.

تمّوا على منعهم من أرضهم ولم يُعطوهم إلاّ القتال، وأن يخيِّروا مَن أقام واستسلم: الجِزاء، أو الجلاء، وكذلك الفلاّح.

وأجاب الخليفة سعد في كتابين ذكرهما الطبري، فكتب:(١)

«وكتب جواب كتاب أنس بن الحُليسن: أمّا بعد؛ فإنّ الله جلّ وعلا أنزل في كلّ شيء رُخصة في بعض الحالات إلاّ في أمرين: العدل في السّيرة والذّكر. فأمّا الذّكر فلا رخصة فيه في حالة، ولم يرض منه إلاّ بالكثير. وأمّا العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد، ولا في شدّة ولا رخاء. والعدل - وإن رُئي ليّناً - فهو أقوى وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور، وإن رُئي شديداً فهو أنكش للفكر. فمن تمّ على عهده من أهل السّواد، ولم يعِن عليكم بشيء؛ فلهم الذمّة، وعليهم الجزية. وأمّا من ادّعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض؛ فلا تصدّقوهم بما ادّعوا من ذلك إلاّ أن تشاؤوا؛ وإن لم تشاؤوا فانبذوا إليهم، وأبلغوهم مأمنهم.

وأجابهم في كتاب أبي الهيّاج: أمّا من أقام ولم يَجْلُ وليس له عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفّهم عنكم إجابة، وكذلك الفلاّحون إذا فعلوا ذلك. وكلّ من ادّعى ذلك فصُدّق فلهم الذمّة؛ وإن كُذّبوا نبذ إليهم. وأمّا مَن أعان وجلا؛ فذلك أمرٌ جعله الله لكم؛ فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم، ولهم الذّمّة، وعليهم الجزية؛ وإن كرهوا ذلك، فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم».

فلمّا تسلّم سعد والمسلمون كتابَي الخليفة عرضوا على الذين جلوا وتنحّوا عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية. فتراجعوا وصاروا في ذمة المسلمين، وكان خراجهم أثقل من الذين بقوا على العهد. وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد، وكذلك الفلاحين. ولم يُدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يَقبل بإحدى اثنتين: الإسلام أو الجزية. وهكذا صارت هذه الأملاك فيئاً للمسلمين.

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٤٣٦.

وأخذوهم بخراج كسرى أي على رؤوس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والأموال.

كتب الطبري:[1]

«كتب إليّ السّري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، عن عامر الشّعبيّ، قال: قلت له: السّواد ما حاله؟ قال: أُخذ عَنْوَةً، وكذلك كلّ أرض إلاّ الحصون، فجلا أهلها؛ فدُعوا إلى الصّلح والذّمة، فأجابوا وتراجعوا، فصاروا ذمّة، وعليهم الجزاء؛ ولهم المَنعة. وذلك هو السنّة، كذلك صنع رسول الله ﷺ بدُومة. وبقي ما كان لآل كسرى ومَن خرج معهم فيئاً لمن أفاءه الله عليه».

أما الغنائم في القادسية فكانت كثيرة جداً بحيث أصاب الفارس ستة آلاف درهم والراجل ألفي درهم. وأمر عمر بن الخطاب بتفضيل أهل الشجاعة فزادهم سعد خمسمائة لكلّ منهم وعددهم خمسة وعشرون رجلاً. كما أمر بإعطاء جند الشام الذين قدموا إلى القادسية تعزيزاً للمسلمين أيضاً من الغنائم، سواء شهدوا المعركة أو تأخروا بالوصول.

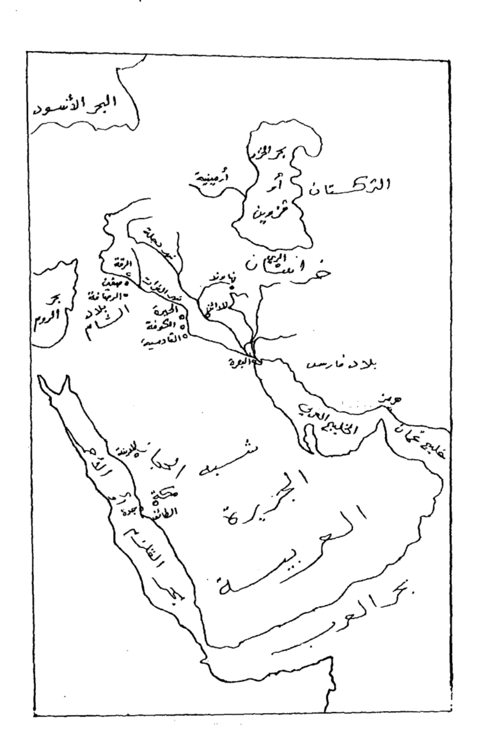
وبقي لدى سعد الكثير من الإموال، فأمره الخليفة بأن يدفع إلى كلّ مسلم يجيد حفظ القرآن الكريم. وكلّما حفظ أكثر زاد له العطاء.

كلّ هذه الأمور قام بها سعد بن أبي وقاص ومعاونوه بعد معركة القادسية وقبل استئناف الجهاد والمعارك ضد فارس والتي سنتكلّم عنها في الجزء التالي من هذه الموسوعة.

---

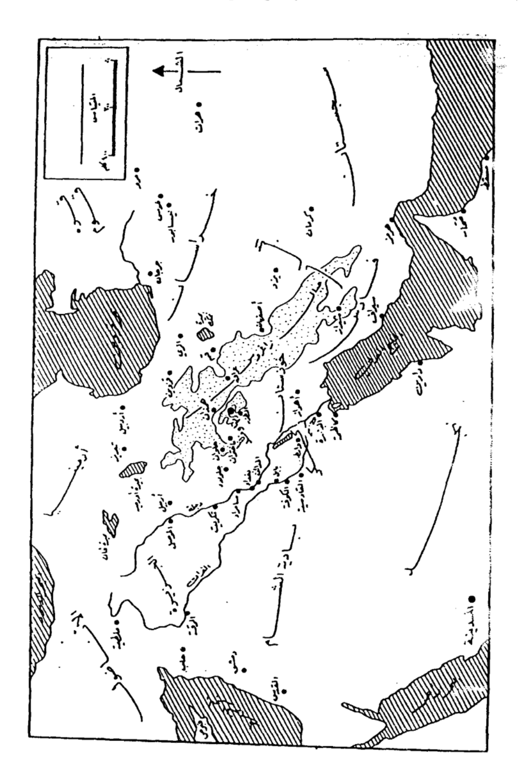
(١) المرجع نفسه.

خارطة رقم ١٧
شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق



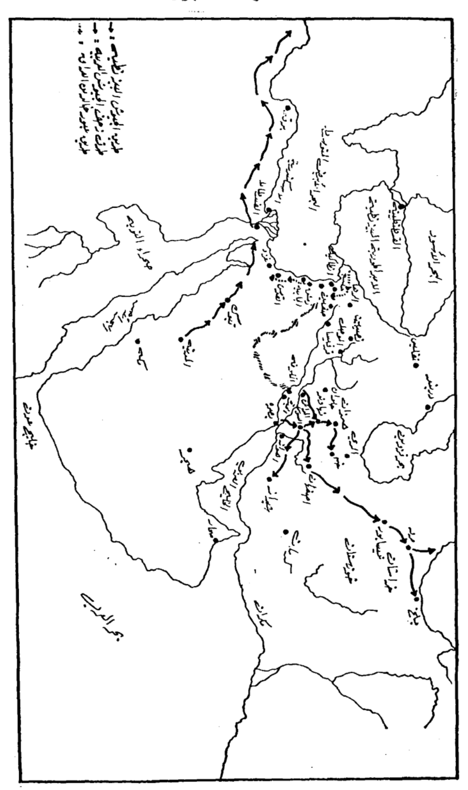
خارطة رقم ١٨

العراق وفارس



خارطة رقم ١٩

الفتوحات الكبرى



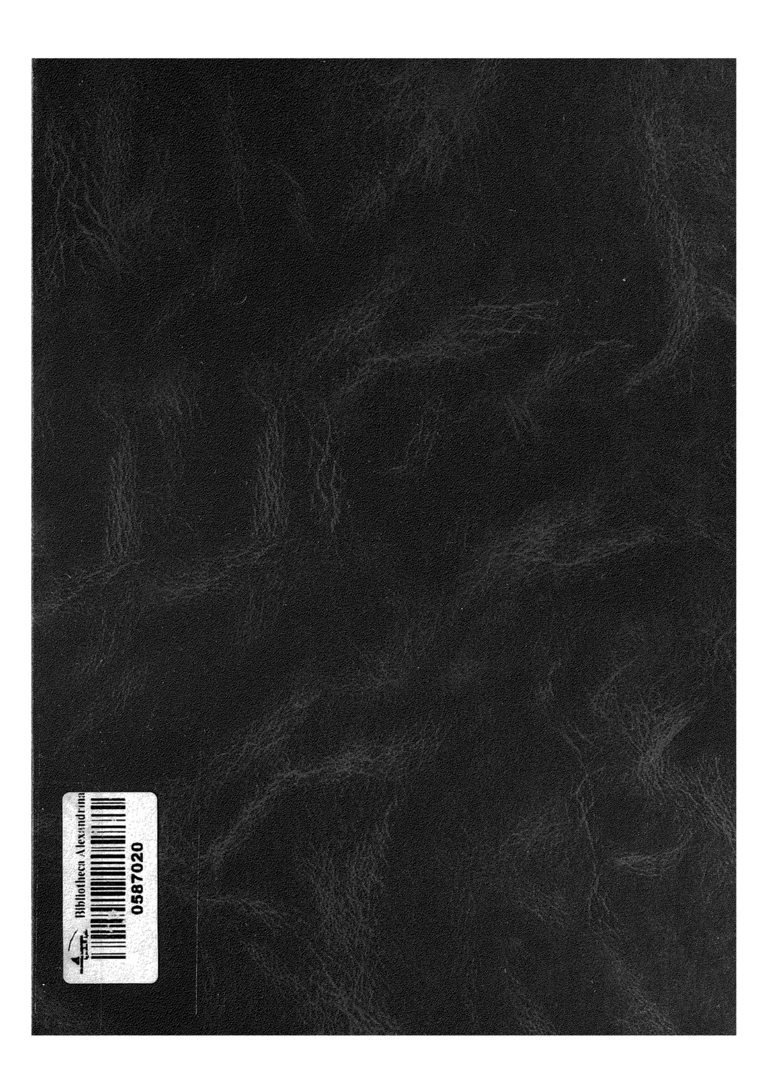
فهرس الجزء (٤)

الخرائط:








Bibliotheca Alexandrina
0587020